موروثنا البلاغي

والأسلوبيـــــة الحديثـــــة

دراسة. . وموازنة

إعداد
د. محمد محمد عبد العليم دسوقي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر بالقاهرة

طباعة ونشر دار اليسر بالقاهرة
٠١٦٢٢٧٦٢٠٨ – ٠٢٢٤٧٠٩٢٦٩
Alyousr@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

*****

توطئة بين يدي البحث

تتعالى صيحات التحديث والتجديد في تناول العلوم الشرعية واللسانية، بين الحين والآخر .. وهي في مجموعها دعوات تحمل في طياتها أحياناً خدمة الإسلام وتسهيل علوم المسلمين لدارسيها، بينا تحمل في أحايين كثيرة تشكيكاً في الإسلام وحطاً من كيانه وسعياً لتدمير علومه وتراثه وابتعاداً بهما – من ثم – عن نصوص وحيه .. وإنما تكون الدعوات بنَّاءةً عندما تصدر صيحاتها عن قلوب مؤمنة خيِّرة مخلصة، حريصة على أن ينتفع بعلوم الدين من أرادها وجاهد نفسه في تعلمها وتعليمها ممن أسلم أو اعتزم – من غير المسلمين – إسلام الوجه لله، في حين تكون هدَّامة عندما تصدر عن قلوب ليست كذلك .. ولكل وجهة هو موليها وإنما الأعمال بالنيات.

ومهما يكن من أمر فإنا نستطيع القول بأن المناداة بالتجديد في شتى علو م المسلمين النظرية وما تعلق منها بالعلوم العربية على جهة أخص، إنما أتت على خلفية ما سُدِّد إلى الفصحى ومقررات تدريسها من طِعان تقضي بأنها قاصرة وعقيمة ولم تعد صالحة للتداول ولا مواكِبة للعصر ولا وافية بمتطلباته .. ومن أنها تحتاج من حيث مادتها إلى تغيير ولو أدى ذلك – بشطط المشتطين – إلى استبدال العامية بها، ومن حيث طريقة عرضها وأدائها الأسلوبي إلى تبسيط وإفهام لدارسيها، ولو أدى ذلك – برأيهم – إلى تغيير مناهجها وخروجها وتخليها عن كل ثوابتها وما درجت عليه أو اندرج تحتها .. هكذا قرر دعاة الشعوبية والاستشراق ودعاة التبشير والتغريب من العرب والعجم، وتلك هي القصة من بدايتها.

ومن لطف الله ومن دلائل حفظه لدينه أن تنبه للكارهين للغة القرآن والمرجفين لهم في المدينة، غيرُ واحد، وأذكر من تيك الأصوات، صوت الكاتب الداعية الأستاذ أنور الجندي – رحمه الله – الذي سخر قلمه ومن قبلُ حياتَه لخدمة الإسلام وقضايا المسلمين، وذلك من خلال موسوعته الحاوية على عشرة أجزاء وجاء مسماها تحت عنوان: (محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل).

فقد رصد في كتابه السالف الذكر، محاولات وجهود الحركات المعادية للإسلام وخص منها بالاهتمام تلك التي تريد أن تجتث – بزعمها – الإسلام من جذوره بتغييب لغته وعلومه التي قامت على خدمته، متخفية تحت شعار التحديث، ومحتمية براية التنصير والتبشير تارة وبراية الاستشراق أخرى وبراية التغريب ثالثة وبراية الشعوبية رابعة وبراية الحداثة خامسة، وفي كل ذلك (يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون).

وفي إطلالة على أولئك المجترئين والمتولين كِبَر التهجم على لغة الضاد، يذكر – عليه رحمة الله – أن ثمة حملة ضخمة للتبشير بدأت في نهايات القرن الثامن عشر كانت قد توصلت إلى حقيقة "أن القضاء على القرآن مصدر الإسلام وقانونه الإسلامي، يتطلب القضاء على اللغة الفصحى، ولما كان التبشير والنفوذ الاستعماري لا يستطيعان أن يكشفا هذه الحقيقة صراحة، فإنه قد أخفاها وراء كل خطوة اتخذها بشأن الدعوة إلى العامية أو مهاجمة العربية واقتناصها أو الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية"[1] .. وممن شَغلوا

(1) موسوعة أ. الجندي (محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل) ٥/ ١٠٨، ١٠٩.

أنفسهم من الأجانب بتحقيق الغرض ذاته (كارل فولرس) و(سلدن ولمور) و(ويلكوكس)، وقد بدأ ذلك منذ ١٨٨٠ واستمر حتى عام ١٩٢٦ تقريباً، وفي خلال ذلك كان (لطفي السيد) و(قاسم أمين) و(سلامة موسى) قد حملوا هذه الدعوة، ثم اتصل ذلك بالدعوة التي دعاها (عبد العزيز فهمي) عام ١٩٤١ عندما نادى بالكتابة بالحروف اللاتينية! كان هذا في مصر، وأما في المغرب فقد تولى (كولان) ومن بعده (ماسينون) لواء هذه الدعوة، وفي لبنان ظهر كثير من الدعاة إليها وإلى العامية اللبنانية.

ومن الواضح – هكذا يقرر أ. الجندي – أن هؤلاء الأجانب من المبشرين – الذين كان معظمهم يتولى مكانة اجتماعية تتعلق بالتثقيف والتوجيه ودور النشر والعلم في بلاد المسلمين – هم الذين وضعوا الخطط لتحقيق أهدافهم، وهم الذين روَّجوا للادعاءات المبررة لها، من نحو ما يصفونه بـ (صعوبة اللغة العربية) و(صعوبة حروفها)، وما يتهمونها به من أنها لا تستطيع مجاراة العلوم الحديثة بدعوى وجود فروق واضحة بين لغة الحديث ولغة الكتابة، ومن أنها لغة ميتة ولغة دينية وغير وافية بحاجات العصر[1].

وكان المبشر الأكبر (زويمر) قد أشار "إلى خطورة اللغة العربية حين قال: (إن اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم)، وكان هذا إشارة إلى ضرورة العمل على هدم العربية الفصحى التي هي لغة القرآن، وهذا هو المعنى الذي تلفت إليه المرحوم (مصطفى صادق رافعي) في حملته على (لطفي السيد) ودعاة التسوية بين العامية والفصحى، فقد كان الرافعي يعرف أن الهدف من ذلك هو إحلال لغة وسطى بسيطة قريبة من العامية لتكون لغة الكتابة وبذلك يبتعد المسلمون عن لغة القرآن البليغة ويصبحون عاجزين عن فهم القرآن أو التعامل معه وهذا هو ما يهدف إليه الاستعمار"[2].

وجاء دور <u>المستشرقين</u>!! فكانت حملة الاستشراق على اللغة العربية مرتبطة – كذلك ولنفس الأهداف التي سعى إليها المبشرون – بحملته على القرآن، كما كان "الاستشراق – والكلام هنا للشيخ محمود شاكر في رسالته (في الطريق إلى ثقافتنا) – هو عين الاستعمار التي بها يبصر ويُحَدِّق، ويده التي بها يُحِسُّ ويبطِش، ورجله التي بها يمشي ويتوغل، وعقله الذي به يفكر ويستبين، ولولاه لظل في عميائه يتخبط، ومن جهل هذا فهو ببدائة العقول ومسلماتها أجهل"[3] .. وفي إطار خلق الفجوة بين بيان القرآن ولغة الكتابة "قام (لويس ماسينون) المستشرق الفرنسي بخلق الفجوة تلك في المغرب وسوريا، وقام بها (مرجليوث) المستشرق البريطاني اليهودي في البلاد العربية .. وكان الهدف أنه إذا حُلت اللغة واستُعجمت الألسنة انقطع الطريق إلى الإسلام وتمزقت الأواصر .. ومما كان يدعو إليه (ماسينون): (إهمال الإعراب)، على اعتبار أنه ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب، وقد دعا (ماسينون) رجال المجمع العلمي في دمشق إلى اتخاذه وسيلة للتجديد، وكرر دعوته في أندية الشباب العربي في باريس"[4].

---

(1) ينظر السابق ٥/ ١٠٩، ١/ ٣٦١.
(2) السابق ٥/ ١١٠.
(3) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا للشيخ شاكر ص ٨٧.
(4) ينظر موسوعة الجندي ٥/ ١٨٣.

لقد "تعددت محاولات المستشرقين – إذاً – وتنوعت حيلهم للوصول إلى أغراضهم المتمثلة في تمزيق العرب وتغييبهم عن لغتهم التي هي مصدر عزهم، خاصة عن طريق مجامع اللغة العربية التي اشتركوا فيها ومنها جاءت دعوتهم إلى كتابة القرآن بلغة العصر .. كما حاول الاستشراق الغمز لعلوم النحو والصرف والبلاغة والادعاء بأنها من عوامل صعوبة اللغة العربية، وهذه أيضاً من مؤامرات الاستشراق، ذلك أن حماية اللغة العربية تتطلب المحافظة الكاملة على ما هو مقرر ومنقول من الأصول والقواعد السليمة في علمي النحو والصرف وعلى ما هو محرر مقبول في علوم البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع دون السماح بما يؤدي إلى اللحن أو مسخ الأسلوب العربي المبين والديباجة الرائعة والجمل والأساليب التي تمتاز بها اللغة العربية"[1].

وأعقب حركتا التبشير والاستشراق في الظهور على الساحتين العربية والإسلامية ما سمي بـ (حركة الشعوبية) التي كانت تستهدف انتزاع الأدب العربي من قيمه والتنكر لماضيه وقطعه عن خيطه الممتد وتراثه الطويل ووصله بمفاهيم الغربة والتمزق، وذلك بمحاولة تغليب أجناس أدبية وافدة وباتهام العقلية العربية وتدميرها عن طريق خمريات أبي نواس وبشار وغيرهما وعن طريق الشعر الحر الذي يستهدف إفساد اللغة والنفس معاً .. وكان وراء دعاة هذه الحركة مجموعة من الكتَّاب الذين يحملون أسماء عربية وهم في حقيقتهم من أصحاب التبعية للفكر الغربي والولاء لثقافته والإيمان بوجوب نقل ثقافته وحضارته ككل بزعم أنه لا انفصال بين الثقافة والحضارة.

وشر من مثَّل هؤلاء وأولئك، المسيحي (سلامة موسى) الذي دعا إلى كل ما يُخرج المثقف العربي المسلم من قيمه، وحاول أن يتخذ من العلمانية والإلحاد والإباحية والمنهج المادي في تفسير التاريخ والعالمية أدواته، والذي أورد عنه الجندي قوله: "يجب أن يكون الناس أحراراً في تبديل قوانين الحكم والزواج والطلاق والتربية والأخلاق وسائر ما يؤثر في حياة الفرد والسلالة"، وقوله: "إن هذه المفاهيم لا تَخرج عن أن تكون آراء قديمة لأحد الناس أو لجماعة منهم وليس شيء جدير بالتقديس"، وقوله: "ليس علينا للعرب أي ولاء، إننا أرقى من العرب، إن العربية ليست لغتنا ولا نستفيد منها وإن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم والأصلح لمصر أن تعود إلى وطنية فرعونية"، وقوله: "نحن أوربيون في الدم والمزاج والثقافة واللغة، فليس من الصواب أن يقال إننا شرقيون، ومن مصلحتنا أن نغرس في أذهان جميع العرب أنهم أوربيون سلالة وثقافة وحضارة"، ومن جهوده في هذا الشر المستطير، إصداره كتاب يحمل عنوان (البلاغة العصرية واللغة العربية)[2] .. ولا ندري أي بلاغة عصرية تلك التي تجتنى من وراء رجل يتخلى عن عروبته ولغته ومبادئه وقيمه على هذا النحو المزري.

والمستهجن في الأمر أن كل ما سردناه من محاولات لطمس معالم اللغة وعلومها كان يصب في خدمة الغرب وحملته على العرب والإسلام كما كان يمهد لما أُطلق عليه (حركة تغريب الشرق)، وهي الحركة الكبرى الأساسية التي كانت دعوة التبشير وعمل الاستشراق وحركة الشعوبية وسائل لها والتي كانت تهدف في الأساس إلى تثبيت قواعد النفوذ الأجنبي والاستعمار وإلى فرض ثقافة معينة على الفكر العربي الإسلامي، حتى يخضع العالم

---

(١) السابق ٥/ ١٨٣ باختصار.

(٢) السابق ٤/ ٥٣٣، ١٠/ ٣١٠.

الإسلامي عن طريق الفكر للغرب ويكون تابعاً بحيث تكون العلاقة بينهما علاقة ولاء وترابط لا علاقة صراع وخصومة، فقد كان الغرب يؤمن ولا يزال بأن فكره ومدنيته وحضارته يجب أن تسود العالم كله وأن تختفي كل مقومات فكر الأمم التابعة له أو تنصهر في ثقافته وبذا يخضع العالم كله للفكر والحضارة الغربية .. وهذا يعني أن دعوة التغريب التي كان التبشير بعض طلائعها كانت تصدر في مخططها عن هدفين كبيرين:

١- توقيف اللغة العربية عن النمو أو الانتشار في أي مكان حل فيه الاستعمار وذلك بتجميدها وإقصائها عن مجال التعليم، تمهيداً لتوقيف انتشار الإسلام نفسه وللفصل بين العرب والمسلمين وبين العروبة والإسلام وللحيلولة دون أن تصير لغة القرآن مصدراً أساسياً للثقافة العربية الإسلامية.

٢- القضاء على اللغة العربية في العالم العربي وإحلال اللغات الأجنبية واللهجات العامية والحروف اللاتينية مكانها، تمهيداً لتعميق الثقافة الغربية ولفرض المفاهيم الغربية على القيم الأصلية والأساسية في فكرنا العربي والإسلامي .. يعضد ذلك كله ما ذكره المبشر (زويمر) سنة ١٩٠٠ في كتابه (جزيرة العرب مهد الإسلام) حيث كتب يقول: "يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر في ميدان الاستعمار المادي ومجال الدعوة إلى الله، وهما الإنجليزي والعربي، وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع النفوذ والمال، يريد أن يلتهم كل منهما الآخر، وهما العضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشري، أعني الغرب والإسلام"[1].

وإنما وددت بهذا أن أوطئ لأمور ثلاثة لا يقل أحدها أهمية عن الآخرَين:

الأول: أن الدعوة إلى تمزيق أواصر اللغة وتشويه جمالها والتنقيص من خصوصياتها، إنما يتبعها – حتماً – اتّباع كل الوسائل الممكنة من قِبَل هذه الجهات المعادية للإسلام وللغة القرآن ويأتي على رأس هذه الوسائل التركيز على مجال التدريس في جميع مراحله حسب خطة محكمة، وتغيير مناهج التعليم ومقررات التدريس الخاصة بالعلوم العربية في شتى ميادينها وفق هذه الخطة بدعوى التجديد ومواكبة العصر .. وهذا ما جرى بالفعل وعلى حساب استظهار كتاب الله تعالى وتعلم الفصحى وما تسلم به العقيد ة وتصح به العبادة، حتى طال ذلك التعليم الأزهري في مصر والديني في شتى بلاد المسلمين منذ بدايته وحتى نهايته.

الثاني: أن بلاغة القرآن التي أعيت خصوم الإسلام في الحاضر عن أن ينالوا منها على نحو ما أعيتهم فيما مضى، يرجع جانب كبير منها إلى ما تضمنته من وجود ظواهر في تراكيب جمل التنزيل وسياقات آياته يتم بموجبها مراعاة مقتضى الأحوال على أكمل وجه، كما تستوجب – في عالم البشر – وجود ملكة لا تتحقق إلا إذا كان المعبِّر عن المقصود بلفظ فصيح فصيحاً، وهذا أمر يعجز عنه دعاة التغريب بل وجعلهم ييئسون من أن ينالوا من عظمة اللغة التي نزل بها هذا الكتاب الخالد، وبالتالي قصرت جهودهم في تجديد العلوم العربية على مجال الدراسات والأجناس الأدبية، وهذا يجعلنا نؤكد أن ملامح التجديد في ميدان الدراسات البلاغية كانت متواضعة إلى حد كبير إذا ما قورنت مثلاً بغيرها في ميدان الدراسات الأدبية أو سواها.

ومصداقاً لذلك فقد "ظهر من دعاة التغريب وأذنابهم من يقول – فيما يدل على عجزه ومن وراءه عن استيعاب علوم المسلمين وهو د/ محمد كامل حسين –: (أدعو إلى قتل الفصاحة

---

(1) ينظر السابق ١/ ٣٦٥، ١/ ٢٢٧.

وإلى تجاهل البلاغة فقد أصابنا منها شر كثير)، وهي صيحة علت حين أخذت الشعوبية تَقرع طبولها في الستينات ولكنها لم تلبث أن خفتت وعجزت عن المتابعة لأن تيار البيان العربي كان أكبر منها، وقد غاب عن هؤلاء حقيقة أصيلة هي أن الإفصاح منهج واضح من مناهج اللغة العربية في أدبها الذي يعرف لها من العصر الجاهلي حتى هذا العصر، وأن الشيء الذي لا يمكن أن يمتد إليه جموح المجددين هو تلكم الميزة التي لا تفارق اللغة وبيانها، وهي الإفصاح الكاشف لكل ما يختبئ في الفكرة من دقيق المعاني وخفيها، إذ لا سبيل أن يتولى أدب الغموض الذي برعوا في تحديثه شيئاً من ذلك، لأنه يعتمد غالباً على الإحالة في البيان على أشياء مجهولة تحتاج هي نفسها إلى شرح وإفصاح، والدقيق الخفي – كما هو معلوم – لا يفسره غموض أو إخفاء، واللغة العربية من أدق اللغات وأبرعها في استخدام كل ما يحرك النفس ويهيج الخاطر، ولها في الإيحاء المفصح مسالك يدركها من درس أسلوبها البلاغي .. الأمر الذي يجعلنا نقرر أن الإفصاح روح اللغة وجوهرها مهما دق المعنى أو بعُد"[1].

الثالث: أن التجديد في ميدان الدراسات البلاغية – مع مراعاة ما ذكر في الأمرين السالفي الذكر– إنما كان رد فعلٍ للصيحات التي تعالت لتنادي – إثر الحملات المعادية للإسلام – بضرورة التحديث في أسلوب تناول علوم البلاغة التي يأتي على الرأس منها علم المعاني .. وقد اتخذ هذا التحديث منحيين، جنح أحدهما إلى تلقيح البلاغة العربية بالبلاغات الأوربية، وهذا بدا واضحاً في بيئات التعليم العام وأعني به كليات الآداب في جامعاتنا، كما نجد صداه فيما ألف (الشايب) في كتابه (الأسلوب) وفيما ألف (أمين الخولي) في كتابه (فن القول) وفيما ألف (طه حسين) من كتب موجزة لمدارس التربية والتعليم .. بينا اكتفى الثاني منهما بتصفية البلاغة من الشوائب ومن الآراء المعقدة التي اتُخمت بها وبدا فيها النظر، وهذا نراه ماثلاً فيما يقرر في بيئة الأزهر وكلياته ومعاهده.

وإنا إذ نختار – لرصد معالم التجديد في هاتين البيئتين وتقديم دراسة تشملهما وتتكفل بعقد موازنة فيما بينهما وتقييم شامل لتجربة تحديث البلاغة فيهما يسمح به الوقت والجهد – إذ نختار لتحقيق ذلك، الحديث عن (علم المعاني) باعتباره عمود البلاغة القائمة على مراعاة مقتضى الحال، لنؤكد أن الأمر بهذا يحتاج إلى مزيد بيان لنرقُب هذه الفروق ونحكم على ما يصلح أن يكون نواة لخدمة بلاغة وفن القول وما لا يصلح .. ولذا فقد اقتضت خطة البحث لأن تأتي في هذه المقدمة ثلاثة مباحث:

أولها: وعنوانه (مظاهر التجديد في ميدان الدراسات البلاغية منذ النشأة وحتى اللحظة)، ويتناول فيما يتناول: مدخلاً في مفهوم التجديد واتجاهاته، يتبعه حديثاً عن ملامح التجديد فيما خلفه لنا السابقون من الموروث البلاغي، ومنازع التجديد لديهم لبيان ما لها وما عليها، وطرائق التجديد المعاصرة في ميدان الدرس البلاغي واتجاهاتها، ثم تقييم شامل لهذه الأطروحات المعاصرة بعد وضعها في ميزان النقد العلمي.

ثانيها: ويحمل عنوان (التجديد في علم المعاني في ضوء الأسلوبية الحديثة) ويتناول: مدخلاً في سبب اختيار هذا الموضوع ليكون مجالاً لهذا البحث، ثم تبع ذلك حديثاً عن مظاهر تجديد علم المعاني في ضوء صياغته التقليدية، ثم عن ملامح هذا التجديد في ضوء الأسلوبية الحديثة مما يمكن عده من الإيجابيات وما يمكن عده من السلبيات، لنعطي الحق أولاً لعلم

([1]) السابق٤/ ١٣١ بتصرف يسير وينظر ٥/ ١٨٤.

الأسلوب في مطالبته بعدم مزج البلاغة بالدراسة الفلسفية المستعجمة، ونسلبه ذات الحق في حديثه عن مكونات اللفظ العربي في علم المعاني، وفي رجوعه بعلم المعاني إلى الوراء حيث الحديث مرة أخرى عن قضية اللفظ والمعنى، وفي إبحاره بعلم المعاني في تيه الحديث عن الوجدان وخلجات النفس ومظاهر الشعور الأخرى.

ثالثها: وقد جاء بعنوان (الأسلوبية الحديثة واتخاذ علم المعاني تكأة للتآمر على الدرس البلاغي وغايته)، وقد خصصته بالحديث عن تشويه الأسلوبية لعلم المعاني بإعادة تقسيمه – مع سائر علوم البلاغة الأخرى – من جديد لأقسام بعيدة عن النظرة العلمية، وعن نقضها لهذه العلوم بخروج الدرس البلاغي عن وظيفته، وتحويله – على خلفية المطالبة بتوسعته ليشمل أغراض الأدب ومعانيه – إلى درس في الأدب وفنونه، وتبع ذلك حديثاً عن ابتعاد الأسلوبية الحديثة وتخليها عن الهدف الذي لأجله كانت البلاغة والتأليف في علومها، وبسببه كان اتصالها بالحياة الأدبية وجعل درسها ذا جدوى، ثم خاتمة عن البلاغة العربية بين الأصالة والمعاصرة ودور الإصلاحيين المعاصرين في تجديد الخطاب البلاغي وتقريب التراث البلاغي لدارسيه والمناداة بوصل قديمه بجديدة في رباط حميم.

والله وحده الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول
مظاهر التجديد في ميدان الدراسات البلاغية منذ النشأة وحتى اللحظة

أولاً: مدخل في مفهوم التجديد واتجاهاته في ضوء تحديث الدرس البلاغي:

كلمة (تجديد) بوزنها اللغوي (تفعيل) تعني في لغة العرب: حالة التواصل والاستمرارية وبذل الجهد والطاقة، وهي وإن لم ترد في القرآن بهيئتها إلا أنه لا يخلو من التعبير عنه بمعانٍ أخر تسهم في تفسيرها، من نحو (الإصلاح) الوارد ذكره في قول الله تعالى على لسان هود عليه السلام: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت .. هود/ ٨٨)، و(التغيير) على ما في قوله: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. الرعد/ ١١) .. كما ورد ذكرها صراحة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يبعث على رأس كل مائة، من يجدد لهذه الأمة دينها)[١].

ولما كانت قضية التجديد من القضايا الرئيسة التي تطرح على كافة المستويات والمعارف النظرية منها والنظامية والحركية، فقد اعتبرت من الأمور القيمية الأساسية بحيث إن أي تيار فكري يمكن له أن يعدَّ نفسه ممارساً للتجديد .. ومن هنا شكَّل مصطلح التجديد في ذاته بريقاً أدى إلى انخراط كافة التيارات الفكرية فيه، واعتبارها نفسها الممثل له، ومن ثم فقد أفرد كل منها مبحثاً من مباحثها أو أكثر لهذا الغرض إن لم يكن بهذا المسمى فتحت مسميات قريبة مثل: (التقدم) أو (التطور) أو (الحداثة) أو (المراحل) أو (التأريخ) أو (التغيير)[٢].

وأهم ما تشير إليه نصوص الوحي السابق ذكرها هو ذلك التواصل الذاتي الذي يتأتي بعودة الأمة إلى الأصول والتفاعل في حركة الحياة مع مبادئها ومقاصدها فكراً ونظاماً وحركة، وبذا يعد مفهوم التجديد أحد المفاهيم الشرعية التي لا يجوز التفريط فيها لا اسماً ولا معنى ولا دلالة[٣].

وبناء على ما مرَّ بنا فقد حمل البعض مفهوم التجديد الوارد في الحديث على معنى: إحياء الدين والاجتهاد المذهبي وإزالة البدعة وإقامة السنة والعمل بمقتضاها، فهو بحسب عباراتهم يعني: إحياء ما اندرس من أحكام الشريعة وما ذهب من معالم السنن وخفي من العلوم الظاهرة والباطنة، وبهذا يصبح التجديد – برأي هذا البعض – بمثابة إثبات جدة وطرافة الأصول والثوابت بعد إحيائها وتخليصها مما أعاق فاعليتها وأثرها[٤] .. لكن الإشكالية ليست في هذا الذي هو محل إجماع، وإنما تكمن في استيعاب الواقع المعاش وفي مواجهة التحديات التي تستحدث، ومصطلح (الاجتهاد في مستجدات العصر) الذي آثروا استخدامه على مصطلح (التجديد) وقصروه على المستحدثات الفقهية، قد لا يستوعب الواقع بتعقيداته ومستجداته.

وقد أدى ما آل إليه (الاتجاه السلفي المعاصر) إلى ظهور (اتجاه التوفيق) الذي ينظر أربابه إلى التجديد باعتباره عملية توفيقية بين الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية، وذلك بهدف إيجاد نوع من المصالحة فيما بينهما .. وقد حدد هذا الاتجاه التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي في: وجود فجوة كبيرة بين وعي المسلمين المعاصر وبين الواقع المشاهد والمتمثل في هيمنة الغرب، وبالتالي فإن الحل المفترض لأية إشكالية يكمن في اعتماد مبدأ التجديد من أجل كشف الخلل القائم في الذهنية المسلمة وبعث قدراتها من جديد في الإبداع والتحضر والتقدم مع الاستفادة من علوم الغرب وتحديه بالسيطرة على الواقع الذي أفرزه[٥].

---

(١) رواه أبو داود في سننه من طريق أبي هريرة.
(٢) ينظر (في النظرية السياسية من منظور إسلامي) د. سيف الدين عبد الفتاح. ص ٢٣.
(٣) ينظر السابق ص١٧و(التعددية وتداول السلطة).رسالة دكتوراه لصفوت أحمد بحقوق القاهرة ١٧ وما بعدها.
(٤) ينظر (المنجد في اللغة والأعلام) لويس المعلوف . ص ٨١.
(٥) ينظر (مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي) مقال لعبد الرحمن الحاج بمجلة المنار الجديد السنة السادسة يناير/ مارس ٢٠٠٣ص ٤٢٩.

ويذهب بعض أصحاب هذا الاتجاه إلى أن مصطلح (التجديد) لم يعد يعبر عن الإحياء بل صار مرادفاً للتطور والتقدم الذي يجمع بين الثوابت الثقافية والمتغيرات الحضارية بحيث أصبح الأقرب إلى التجديد هو من كان يجمع بين الثقافة القديمة والحديثة، وينادي بالإصلاح الشامل لأمور الدين والدنيا بحيث لا يصبح هناك – حسب تقرير عبد المتعال الصعيدي– حرج على المسلمين المحدثين من تطبيق النافع لهم من النظم والثقافات الغربية ويتركوا العتيقة منها التي لا تتواءم مع طبيعة العصر، لأن الظروف والأحوال تتغير .. فمن يقف على دلالة النصوص، يجمد عليها ويجني على الشريعة بتفويت مقاصدها وأغراضها ويجعلها وكأنها غير ملائمة لما يجد من الظروف والأحوال، وعليه فيجب الاجتهاد في تأويل النصوص لإثبات أن الشرع ليس عائقاً لتطور الأمم ولا قامعاً للحريات ولا سجناً للعقول[1] .. والحق أن التوفيق ليس عيباً في حد ذاته، لكن ما يحدث هو أن الاتجاه نحو التغريب عادة ما يكون تمهيداً لإقصاء المفهوم الأصيل للمعارف اللغوية بكل جوانبها ومصطلحاتها وخصوصياتها، والسير قدماً صوب حداثة الغرب والذوبان في ثقافته، والجمع بين أخلاط تستعصي بطبيعتها على التجانس على نحو يجعلها أقرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق .. وما نحن بصـــدد الحديث عنه والإفاضة فيه خير شاهد على هذا[2].

ومن هذا المنطلق ظهر اتجاه ثالث يدعو إلى (أصالة المعرفة)، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الإسلام باعتباره ديناً، قد تنزل ليكون منهج حياة وهو دائماً وأبداً يناشد معتنقيه والملتزمين به أن يترجموا مقولاته الأساسية إلى واقع حي معاش، سواء على مستوى التنظير والتأصيل الفكري والعلمي أو على مستوى النظم والتأسيس والوسائل أو على مستوى الحركة والممارسة الفعلية[3].

كما ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الإسلام بعلومه المتصلة به يستنكف أن يُعَالج بغير أبجدياته، فضلاً عن أن التصور الإسلامي بلغته المصطفاة لا يعرف الجمع ما بين رؤية مهتدية بالإيمان وأخرى وضعية تستند إلى أساس مختلِف ومنتزَع من العلمانية وربما الإلحاد ليجعلهما في إطار واحد، ولذا ينادي هذا الاتجاه بالبدء بالنقد الجذري للحضارة الغربية الحديثة ومحاولة استكشاف معالمها والسعي للإمساك بمفاتيحها مع الاحتفاظ بمسافة بينه وبينها، ثم يحاول تجريد نموذج معرفي منها يتمكن عن طريقه من توليد إجابات على الاستشكالات التي تثيرها الحداثة الغربية وعلى أية إشكاليات أخرى جديدة، يعني أنه باختصار يفتح – انطلاقاً من أرضية إسلامية – باب الاجتهاد في كل ما تمس له الحياة ويستجد في دنيا الناس سواء فيما يتعلق بالتعامل مع المنظومة الغربية أو ما تعلق بفهم واستحضار الموروث الثقافي الإسلامي[4]، وأظننا بذلك نستطيع أن نجعل ما تم على يد الإصلاحيين المعاصرين – ممن كان على شاكلة أئمتنا محمد عبده ومصطفى المراغي ورشيد رضا ومحمد أبي موسى وإبراهيم الخولي ونظائرهم – من تحديث لبعض العلوم بإرجاعها إلى ماضيها مع تسهيل تناولها، من هذا القبيل.

ولعله قد بدا واضحاً أن ما أفضت فيه القول هنا عن مفهوم التجديد واتجاهاته يروم بيان:

1 – أن التجديد ضرورة شرعية وسنة من سنن الله الكونية وفطرة فطر الله الكون والكائنات عليها، وأنه لذلك قد شمل سائر مظاهر الحياة ومعارفها وعلومها وميادينها، وطال – بالطبع –

---

(1) ينظر(حقيقة الأصولية الإسلامية في فكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي). عصمت نصار. ص ١٧٩.

(2) وإنما حكمنا بهذا، بناء على أن ما سبق ذكره – من أن ثمة اتجاها يدعو إلى تلقيح البلاغة العربية بالبلاغات الأوربية، وأن هذا بدا واضحاً في بيئات التعليم العام وكليات الآداب في جامعاتنا، كما نجد صداه فيما ألف (الشايب) في كتابه (الأسلوب) وفيما ألف (أمين الخولي) في كتابيه (فن القول) و(مناهج التجديد) – قد وجد من الاعتراف به ما يؤكده وسيأتي بيان ذلك في حينه.

(3) ينظر (في النظرية السياسية من منظور إسلامي) ص ٥٦.

(4) ينظر (معالم الخطاب الإسلامي الجديد) د. عبد الوهاب المسيري.ضمن كتاب (الشرعية السياسية في الإسلام مصادرها وضوابطها) إعداد وتحرير عزام التميمي . ص ١٧٦.

ضمن ما طال (ميدان الدراسات البلاغية) بشتى فنونها، وعليه فليس من الصحة – مع ما ذكر – القول بأن البلاغة العربية تظل جامدة قابعة تراوح مكانها.

٢ – وأن صيحات الإصلاحيين بضرورة تجديد الخطاب البلاغي في عصرنا إنما جاء تمشياً مع نوازع الفطرة، ولا يبعد أنها قد جاءت – مع ما سبق ذكره – كرد فعل لهذه الصيحات التي علت، يتهم الخوّان الختَّار منها البلاغة بالجمود والتخلف والرجعية، وينادي الخيِّر الحسن النية منها بأهمية تسهيل هذا التراث البلاغي على نحو يبعث على التشويق لدراسته ويشجع على تعلمه وينشد تربية الملكة للكشف عن أسرار ما بلُغ من الكلام وفصُح.

٣ – وأن من التجديد ما هو مقبول وهو هذا الذي يربط القديم بالجديد ويعتمد مبدأ الأصالة والمعاصرة، وما هو مرفوض شكلاً وموضوعاً وهو ذلك الذي يقطع الصلة والرحم بين هذا وذاك، من نحو تلك الحداثة التي ملئوا الدنيا بها صراخاً، وعابها أهل الاختصاص على التحقيق، وحسبنا أن نذكر منهم د/ شوقي ضيف – أستاذ جيل الرواد وصاحب موسوعة (تاريخ الأدب العربي) والمؤلفات الشهيرة في اللغة والأدب والتراجم – الذي قال في جوابه عن سؤال في تقييمه للواقع الأدبي والثقافي بعد رحيل كثير من العمالقة والنوابغ في الوطن العربي وتدفق موجة (الحداثة) وما صاحبها من المذاهب الوافدة:

"أشم من رائحة السؤال مدى الخوف والقلق الذي أصابنا من جراء الغزو الفكري والثقافي الغربي في العقود الأخيرة، ولكني أطمئن هذا الجيل والأجيال المقبلة بأنه لا خوف على الأدب العربي إطلاقاً .. أما عن (الحداثة) – كما أطلقوا عليها – فلا هي حداثة ولا دماثة، بل هي ردة فكرية وثقافية، والحمد لله أن هذه الدعوى الغربية الشاذة أوشكت أن تتلاشى وتذهب ريحها (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .. الرعد/ ١٧)، فشتان بين الأدب الأصيل والأدب الزائف، وشتان بين الأخلاق والدعارة" .. وأردف يقول: "إن المشاعر العربية – دائماً – ترفض الفن الرخيص الزائف، كما ترفض الانحرافات النفسية والفكرية، إن أدبنا العربي الإسلامي عالم فسيح رحب يتغنى بالتضحيات والبطولات، ويدعو إلى الفضائل، وينهى عن الرذائل، ويجول في أنحاء الشرق والغرب، ويبرز التجارب المحلية والعالمية، ويرتبط بقضايا الإنسان عامة وقضايا المسلمين في شتى أنحاء المعمورة خاصة"[1] أ.هـ

٤ – وأن المناداة بالتجديد في ميدان العلوم البلاغية يشوبها الكثير من المخاطر والمحاذير التي تستوجب أن نتحسس لأجلها مواطئ أقدامنا وأن نتنبه لما يريده عدونا .. وما ذلك إلا لارتباطها أولاً ارتباطاً أساسياً ببلاغة القرآن، ولاستعصاء هذه العلوم عن الانضواء تحت الحداثة أو أيٍّ من مسميات التغيير التي تبغي التوفيق ما بين الرؤى العربية والرؤى الغربية، ولما تتميز به – ثالثاً – من دقة وخصوصيات لا يمكن معها أن تنصاع لنوازع التجديد الغربية على نحو ما تأثرت الدراسات الأدبية والنقدية على سبيل المثال.

وإنما يؤكد وجهة النظر هذه أن الذين أجهدوا أنفسهم في معاداة العربية كانوا عاجزين عن فهم البيان العربي وكانوا يخطئون في فهم البلاغة العربية، ولقد أفصحت بنت الشاطئ عن شيء من هذا عندما قالت: "إن اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين لغة أجنبية عنهم، ومهما أتقنوها وأجادوا تعلمها هم يعجزون عن تذوق بعض أساليبها، ويحول تركيبهم الاجتماعي وتكوينهم الحضاري دون النفاذ إلى ما وراء الكلمات والحروف من شفافية وحسن وأسرار مبثوثة، وهذا أوقع بعضهم في أخطاء دفعتهم إلى إصدار أحكام مجحفة سجلوها ظلماً على بعض مفاهيم الإسلام، فادعى (فيليب فونداس) أن الأموال عند السلم من أصل شيطاني نجس استناداً إلى الآية الكريمة (خذ من

[1] في حوار له اختير له عنوان: (الحداثة ردة فكرية تلاشت وذهب ريحها) بمجلة (الأدب الإسلامي) الصادرة عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية عدد ٢٨ لسنة ١٤٢١ص٥٨.

أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها .. التوبة/ ١٠٣)، وادعى آخر أن الحُكْمَ الدينيَّ الأسس، كان ينظر إلى المحكومين الأعاجم كقطيع من الغنم، ويستنبط هذا الاكتشاف من فهمه لمعنى الراعي والرعية .. إلخ"[١].

ويجرنا ذلك كله إلى الحديث عن جهود البلاغيين الحثيثة في تجديد معالم البلاغة العربية قديما وحديثاً، وفي بيان ما لها وما عليها، وفي اتفاق دعواتهم التجديدية على المناداة بسلاسة الأسلوب في تناولها والإلمام بمسائلها والإحاطة بدروبها وفصولها ومباحثها.

<u>ثانياً: ملامح التجديد فيما خلفه لنا السابقون من الموروث البلاغي:</u>

يمكن لنا القول أن البلاغة العربية تعد بحق معلماً بارزاً من معالم تراثنا الحضاري والثقافي الذي ارتبط ارتباطاً محكماً طوال تاريخه وإلى يوم الناس هذا بالقرآن وعلومه وبالسنة وبيانها، وأنها مرت طوال عمرها التليد وحتى القرن الماضي بأربع مراحل تمثل كل مرحلة منها طوراً جديداً وحدثاً تاريخياً لهذا الفن الراقي والبالغ الأهمية في معرفة جيد الكلام من رديئه وفي الوقوف على أسرار البليغ من فنون القول وخصائصه، وصولاً إلى الوقوف على شيء من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز في كتاب ربنا المجيد، ومن ثم إلى صدق المبلغ عن الله صلى الله عليه وسلم والإيمان به.

ويمثل الإمام عبد القاهر[٢] ت ٤٧١ـ بما دبجه في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) – المرحلة الأولى من هذه المراحل التجديدية الأربع خير تمثيل، إذ "يحتل الإمام الجرجاني في البحث البلاغي مركزاً لم يصل إليه أحد ممن قبله ولم يزاحمه فيه أحد ممن بعده، سواء – كما يقول د. المطعني – من حيث عمق الدراسة أو من حيث ما فجر من كنوزها وفتق من أكمامها وجلّى من مسائلها وأضاف من فنونها، فهو واحد فذ في هذا المجال، وحسبه أنه واضع صرحي علمي (المعاني) و(البيان) وما أشار إليه من فنون (البديع)، ناهجاً بالدرس البلاغي منهجاً فريداً جمع بين العلم والفن والذوق، فكانت مباحثه البلاغية شهداً كشهد النحل، تمتص رحيق كل الأزهار ثم تكسبه جنى طيب المذاق فيه شفاء للناس، وإذا كانت البلاغة قبل الإمام عبد القاهر قد اختلطت – أحياناً – بمسائل النقد واللغة أو اختلط بها النقد، فإن مباحث الإمام عبد القاهر قد مزجت بين هذه الفنون مزجاً حكيماً، فكانت (بلاغة)، حتى النحو والصرف اللذين هما الآن فنان مستقلان، فإنهما في مباحث الإمام عبد القاهر من الروافد التي أسهمت في تكوين (كوثر) البلاغة بما فيه من صفاء وعذوبة وحياة"[٣].

وعبد القاهر – بما سبق ذكره وبرأي الكثيرين – هو أول من ألف في البلاغة "وعلى نهجه سار المؤلفون بعده ونهلوا من معينه واغترفوا من بحره وأتموا البنيان الذي وضع أسسه"[٤]، وقد شهد له بهذه الجدة والأسبقية صاحب الطراز الإمام يحيى بن حمزة العلوي ت ٧٤٩ حيث يقول: "وأول من أسس من هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه: الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد، وهدَّ من سور المشكلات بالتسوير المَشيد، وفتح أزهاره من أكمامهـــا وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها، فجزاه الله

---

(١) موسوعة الجندي ٤/ ٦٣ وينظر ٥/ ١٨٤.

(٢) هو شيخ البلاغة العربية ومجلي علومها ورافع رايتها أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي الشافعي الفقيه واضع أسس البلاغة، له من غير (الأسرار) و(الدلائل)، (المغني) وهو شرح لإيضاح أبي علي الفارسي وهو في ثلاثين مجلداً، و(الجمل) و(العوامل المائة) وغيرها .. ينظر وفيات الوفيات ١/ ٢٨٧ ومفتاح السعادة ١/ ١٥٣ وآداب اللغة ٣/ ٤٤ والإعلام ٤/ ٤٩.

(٣) المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع ١/ ٢٩٦

(٤) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغي ص ١٠٠.

عن الإسلام أفضـــل الجزاء، وجعل نصيبه من ثوابه أوفر النصيب والإجزاء، وله من المصنفات فيه كتابان، أحدهما: لقَّبه بـ (دلائل الإعجاز) والآخر لقَّبه بـ (أسرار البلاغة)"[1].
كما مثل أبو يعقوب السكاكي[2] ت ٦٢٦ – بما صنعه بحق الدراسات البلاغية التي ضمنها القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) – ثاني هذه المراحل التجديدية في تراث بلاغتنا العربية، إذ يرجع له الفضل في جمع شتاتها وفي تقسيمها إلى علومها الثلاثة: (المعاني) و(البيان) و(البديع)، وذلك بعد أن كانت مجرد مباحث ومسائل متناثرة في جهود من سبقه "فميز بعضها عن بعض تمييزاً تاماً وجعل لكل مبحث منها عِلماً خاصاً .. وقد جرى على ترتيبه لهذه المباحث من أتى بعده من المتأخرين، فكان عمدتهم في هذا الترتيب"[3]، ولا ننسى أن السكاكي ظل "يشغل مساحة زمنية هائلة في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع، وأنه إذا كان الإمام عبد القاهر أستاذاً لمدرسة وإماماً خط بقلمه أروع منهج جمع بين العلم والفن، والقاعدة والذوق، وأسفرت كتاباته عن نظريتي (البيان) و(المعاني)، فإن السكاكي أستاذ بحق لمدرسة، وإمام خط بقلمه أدق منهج تفصيلي لكليات البلاغة وجزئياتها وأصولها وفروعها"[4]، وكان تلخيصه لما جاء في كتابي عبد القاهر "أدق من تلخيص الفخر الرازي – الذي سبقه – وكأنما كان عقله أكثر دقة وضبطاً للمسائل .. مع ترتيب المقدمات وإحكام المقاييس وصحة البراهين"[5].
والقول بأن السكاكي أحال مسائل البيان إلى أقيسة منطقية وإلزامات يستعملها المتكلمون لإقناع المخاطبين بما يريدون إثباته أو نفيه من نظريات وآراء، وأنه أفسد ملكة البلاغة بابتعاده عن المنهج التحليلي الجمالي الذي تميز به عبد القاهر[6]، لا يمنع من الشهادة له بما سبق وبأن ما قام به يعد – بكل المقاييس – من وجهة نظره هو على الأقل، تجديداً في تناول مسائل البلاغة وأبوابها وعلومها، وأن "كلا الرجلين جاد بما عنده وبذل قصارى جهده في خدمة هذا الفن، وهذا ما ينبغي أن يكون في الاعتبار عند الحكم على الرواد، لأنهم بشر والكمال عند البشر بعيد المنال، ومهما كان الأمر فإن البلاغة مدينة للسكاكي في كثير من مسائلها"، "وإذا جاز لنا – والكلام لا يزال للدكتور المطعني – أن نضع تشبيهاً يبين دور الرجلين وما بينهما من اتفاق وافتراق، فإن الإمام عبد القاهر مهندس عبقري بنى مدينة فأحسنها وأجملها، والإمام السكاكي هو الذي وضع أسماء ميادينها وشوارعها ورقَّم قصورها ومنازلها فاكتمل للمدينة جمال الإنشاء وحسن التنسيق"[7].
وكان للخطيب القزويني[8] ت ٧٣٩ دور أكثر تميزاً في هذا المضمار، وكانت له "منزلة خاصة في البحث البلاغي بوجه عام لم يحظ به أحد ممن تقدمه ولا ممن لحق به، فكان قطب الدائرة بحق، إذ كان البحث البلاغي قبله آخذاً في النمو والتدرج جيلاً بعد جيل، فجاء هو وقد استلهم أبرز مباحث سابقيه وأخذ على عاتقه مهمة صوغ المباحث البلاغية في عبارات جامعة محررة، وأضاف إليها

---

(1) الطراز للعلوي ١/ ٤.
(2) هو أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر الخوارزمي السكاكي نسبة إلى ما كانت تحترفه أسرته من صنع المعادن وخاصة السكك، وهي: المحاريث أو سكة التي يضرب بها الدراهم، ثم بدا له أن يتفرغ للعلم، فكان أن مضى يعب من جداول الفلسفة والمنطق وعلوم اللغة حتى بز أقرانه واشتهر بعلمه في كل مكان.يراجع معجم الأدباء٢٠/ ٥٩.
(3) مقدمة الشيخ الصعيدي في كتابه البغية على الإيضاح ص ٤.
(4) المجاز بين الإجازة والمنع د. المطعني ١/ ٣٢٩.
(5) البلاغة تطور وتاريخ. د. شوقي ضيف ص ٢٨٨.
(6) ينظر (تاريخ البلاغة) للمراغي ص ٢٨ ومقدمة البغية ص ٤ ومفتاح العلوم ص ٢٣٦، ٢٧٥وما بعدهما.
(7) المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع للمطعني ١/ ٣٢٩.
(8) هو قاضي القضاة جلال الدين محمد بن القاضي سعد الدين عبد الرحمن الشافعي الموصلي، تفقه وأتقن الأصول والعربية، ولي القضاء ببلاد الروم ثم الخطابة بجامع دمشق ثم القضاء بالشام فمصر وفيها علا صيته، ثم أعيد إلى قضاء دمشق، كان ذكياً فصيحاً كثير البر والإحسان.ينظرشذرات الذهب٦/ ١٢٣ والدرر الكامنة٣/٤.

ما جادت به قريحته مع دقة النظر وصواب الفكر وسلامة المذهب وصحة الاستنتاج"[1]، واستحق بما صنعه أن يكون واحداً ممن تأثر بهم الدرس البلاغي في ثالث مراحله التجديدية الأربع.
فلقد عكف على ما خص السكاكي به جانب الدراسات البلاغية وهو القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم)، وجعل منه تلخيصاً أسماه (تلخيص المفتاح) اعتمد فيه – مع شيء من الروح الأدبية – أسلوب السكاكي التقريري، فعني فيه بجمع القواعد وتقريرها في أوضح عبارة وأوجز لفظ، وهذب فيه كثيراً مما أورده صاحب المفتاح فقدَّم في مباحثه وأخَّر وزاد ما تمس الحاجة إلى زيادته .. ثم عمد فيما بعد لتأليف شرح لتلخيصه هذا أسماه (الإيضاح لتلخيص المفتاح) "جرى على ترتيبه .. وجاء وسطاً بين إيجاز التلخيص وإسهاب عبد القاهر .. وكان بهذا، هو الكتاب الممتاز على غيره من كتب البلاغة القديمة"[2] .. والبصير بالنفاذ إلى بواطن الأمور يلحظ أن المباحث البلاغية قد وصلت على يد الخطيب القزويني – ومن خلال كتابيه (تلخيص المفتاح) و(الإيضاح) الذي جعله كالشرح له – إلى ذروة النضج والاكتمال.
ونحن لو وسعنا دائرة الإبداع والتجديد في معارفنا وعلومنا، وأخذنا بما يقضي به كلام صاحب (كشف الظنون) من أن "التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها: وهي إما شيء لم يسبق إليه فيبتكره، وإما شيء ناقص فيتمه، وإما شيء مغلق فيشرحه، وإما شيء طويل فيختصره، وإما شيء مفرق فيجمعه، وإما شيء مختلط فيرتبه، وإما شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه"[3]، فلربما هان علينا الخطب ولاستطعنا في سهولة ويسر أن نستوعب ملامح التجديد التي بدت واضحة المعالم فيما فعله السكاكي حين لمح ما أشار إليه عبد القاهر من فروق بين مباحث علم البلاغة، فميز السكاكي بعضها عن بعض وجعل كل مبحث منها علماً مستقلاً، وأدرج تحت كلٍّ ما يخصه من المسائل ويتواءم معه .. وأن نستوعب ملامح التجديد – أيضاً ومن باب أولى – فيما جادت به قريحة الخطيب القزويني من بعده حين هذب كثيراً من بلاغة (المفتاح) وكان صنيعه هذا موضع إعجاب من جاءوا بعده من المتأخرين .. بل ولاستطعنا أن ندرك ذلك بوضوح فيما صنعه أصحاب الشروح والحواشي، بل ولعددنا ما فعلوه رابع هذه المراحل التجديدية .. ذلك أن من جاءوا بعد الخطيب فيما سمي بـ (عصر الشروح والحواشي)، "اتخذوا من مباحثه في البلاغة نقطة بدء انطلقوا منها إلى غايات بعيدة وآفاق رحبة، مهتدين أينما ساروا بما كتبه ملخصاً أو موضحاً"[4]، ويستشعر هذا من عرك شروحهم وصبر وصابر على قراءة وسَبْر ما أحدثوه وأضافوه وأثروا بها الدرس البلاغي، ولنأخذ كتاب السعد التفتازاني[5] ت ٧٩٢(المطول على تلخيص الخطيب لمفتاح السكاكي) نموذجاً لذلك على سبيل المثال.
وما سبق يجعلنا نقرر بكل تأكيد أن ما يتكأ عليه المتهجمون على تراث الأمة البلاغي من أن البلاغة في عهد أصحاب الشروح والحواشي قد توقفت عن النمو والتطور وعن تقديم الجديد – وإن كان لهم فيه حق – إلا أن الذي يجب ألا يغيب عن الأذهان هو أن اللاحقين قد رأوا في (تلخيص الخطيب للمفتاح) و(مختصر السعد على التلخيص) خير ما يجمع تلك القواعد، وأنهم حين قصروا جهودهم على ما قصروه عليه – من وضع التعليقات والحواشي والتقريرات – لم

---

(1) المجاز بين الإجازة والمنع د. المطعني ١/ ٣٤٧.
(2) مقدمة البغية لعبد المتعال الصعيدي ١/ ٥.
(3) كشف الظنون لحاجي خليفة ١/ ٣٥ المقدمة.
(4) المجاز للمطعني ١/ ٣٤٧.
(5) هو الإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتكلم العالم بالأصول والمنطق والفلسفة واللغة، ولد بـ (تفتازان) وهي بلدة بخراسان، اشتهر ذكره وطار صيته في الآفاق، له من المؤلفات ما يدل على عظيم قدره ومزيد فطنته وذكائه .. ينظر في ترجمته روضات الجنات ص ٣٠٩ والبدر الطالع ٢/ ٣٠٣ وبغية الوعاة ص ٣٩١.

تخل كتاباتهم من إضافات مفيدة وجديرة بالاعتبار وشهد بها ولها الحداثيون أنفسهم[1]، كما أنهم – وهم المعنيون بالتنظير – لم يغلقوا باب الإبداع أمام غيرهم شريطة أن تنضبط قواعد هذه العلوم، وهي لم ولن تنضبط إلا إذا وُضعت أولاً – شأن سائر العلوم التطبيقية – في قالب من القواعد المبتناة على الاستقصاء والحصر والاستيعاب لمسائل كل علم من علوم البلاغة على حدة .. وأنه مهما يكن من أمر المؤاخذات التي أخذت على شروحهم وحواشيهم، فإن قدر وقيمة الجهود التي بذلها أصحاب تيك الأصوات المزعجة التي تسمع لها جعجعة – في المناداة بالتجديد في ميدان الدراسات البلاغية والدعوة إلى التحضر ونبذ الجمود والتخلف في تناولها – ولا ترى لها طحناً، لا تساوي تفلة في بحر ولا قطرة في محيط إذا ما قيست بجهود هؤلاء الذين يلوك الحداثيون سيرتهم دون حتى أن يضطلعوا – لعجزهم عن استيعاب ما كتبه أولئك الأفذاذ – على جهودهم الحثيثة في خدمة البلاغة العربية، وقد رأينا بأعيننا نماذج من هؤلاء – بعد أن اتخذت جامعة الأزهر قراراً يقضي بالاستعانة في مناقشة رسائل أبنائها بأساتذة الجامعات الأخرى – يندى لها الجبين.

ولا ينبغي أن يفهم ما أقرره هنا، على أننا – على طول الخط – مع المنهج التقعيدي أو التقريري الذي أرسى السكاكي قواعده، لكن ما أروم الوصول إليه هو:

١ – أن ما أضر البلاغة قديماً من الاستعانة بمنطق وفلسفة اليونان والإغريق على يد السكاكي، هو عينه الذي أضر بالبلاغة على يد الحداثيين الذين لم يكتفوا بإغراق البلاغة بالفلسفة واتباع منهج التوفيق بين ما نحن عليه وما عليه الغرب أقران اليونانيين والإغريق ولا بالوقوع فيما وقع فيه سابقوهم .. حتى مسخوا بلاغتنا العربية واستعاضوا عنها بما لا يمت إليها بأدنى صلة.

٢ – وأن شر القديم على استغلاقه، أعظم قدراً وأنفع أثراً وأبلغ شرفاً من خير إلغاز الحداثة والحداثيين في أيامنا، ومن كثير مما نراه ونبصره وينسحب عليه قول الله تعالى : (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه .. البقرة/ ٢٦٧)، ولأن نعود إلى بلاغة السكاكي بله الخطيب الذي هذب وحلل ونظم، خير ألف مرة من نصطنع بلاغة لا تخدم ديناً ولا تربي ملكة ولا ترعى لغة ولا تصنع ذوقاً ولا تعلم مبتدِئاً .. وإلا فليقل لنا أولئك المتحاملون الثائرون على نهج تراثنا، على أي أساس يتم في زماننا تدريس البلاغة العربية بمسائلها ومباحثها وأبوابها، وبعلومها وأصولها وأسسها، أعلى الخيال والأسلوب الذي لا نعرف لهما – إلى الآن – ضابطاً؟ أم على المقدمات النفسية والأغراض الأدبية التي هو أقرب إلى درس علم النفس والأدب منه إلى درس البلاغة؟، وأنى لأولئك المبتدئين الذين يودون تعلم البلاغة ودرسها أن يتحقق لهم ذلك إذا لم يهتدوا – حسب ما يقتضيه الحال – إلى أسلوب تقريري يقوم أولاً على إرساء قواعد هذا الفن وضبطه؟..والملامس للواقع يحس جيداً بهذا.

٣ – وأن القدماء مع ما أخذ عليهم من تقعيد البلاغة وصبها في أطر جامدة وقوانين جافة، إلا أن هدفهم الأسمى – وهو الماثل بالدرجة الأولى في التعرف على سر الإعجاز في القرآن – باد من جهودهم واستشهاداتهم بل وبعض عناوين كتبهم .. أما هؤلاء فما لهم من همٍّ إلا الذوبان فيما عليه من لا علاقة لهم البتة ببلاغتنا عن طريق التقليد تارة والتوفيق أخرى، وإلا اللهث وراء من يريد من غيرنا أو حتى من بني جلدتنا التخلي عن تراثنا وحضارتنا وعروبتنا وديننا – على ما أوضحت في مقدمة هذا البحث وعلى ما سيأتي بيانه.

٤ – وأن القديم من الدراسات البلاغية – على ما فيه من جهد يحسد أصحابه عليه – ليس بحائل عن الانتقاد[2]، أو من الوصول من خلال ضوابطه وقواعده إلى درجات الترقي في الازدهار والتذوق اللذين كانت عليهما البلاغة أيامها الأولى وتحديداً في عصر شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني .. ولنا تجارب ونماذج معاصرة تدعم هذا التوجه التجديدي المفضي إلى الربط

---

(1) ينظر على سبيل المثال مناهج التجديد لأمين الخولي ص١٦٥ وما بعدها ، ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩.

(2) ولقد كانت للخطيب استدراكات على السكاكي، كما كانت للسعد استدراكات على الخطيب، ولم يكن ثمة مانع يمنع من الرد والإضافة والتجديد في روح من المودة والتأدب بأدب العلم والعلماء وصولاً إلى الحق والحقيقة.

في التناول بين القديم والمعاصر .. وما أحدثته مؤلفات أ.د / محمد أبي موسى من نحو (خصائص التراكيب) و(دلالات التراكيب) و(التصوير البياني) وصلاحيتها – فيما أحسب – لأن تكون مادة تدريس لمرحلة ما بعد العالية، والدكتور بسيوني فيود من نحو (علم المعاني) و(علم البيان) و(علم البديع) وصلاحيتها – فيما أحسب – لأن تكون مادة تدريس لمرحلة الجامعة .. ما أحدثته هذه المؤلفات من صدى في الأوساط المصرية والسعودية والعربية بل وغير العربية، خير شاهد على ذلك وهو مما لا يخفى على أحد.

ثالثاً: منازع التجديد في تراث السابقين البلاغي ما لها وما عليها:

وأراني لا أطمئن إلى ما ذكره أمثال طه حسين – على طريقته في انتحال الشعر الجاهلي – من "أن مجهود ابن سينا لم يكن ليذهب عبثاً، لأنه عرَّب كتاب (الخطابة) أرسطو – إذا صح هذا التعبير – وجعله في متناول الفكر العربي، وبذلك هيأ أسباب التوفيق بين البيانَيْن: العربي واليوناني اللذين عاشا متجاورين دون أن يتلاقيا ويتآلفا، وقد تحقق هذا التوفيق في القرن الخامس على يدي عبد القاهر الجرجاني"، وقوله في تأكيد ذلك وهو يتحدث عن نوعي المجاز الذي أفاض فيه عبد القاهر في كتابه (أسرار البلاغة): "أما المجاز الذي يقوم على التشبيه والذي يسميه أرسطو (صورة) فيسميه عبد القاهر (استعارة)، وهو لفظ كان القدماء يطلقونه على المجاز بكافة أنواعه، ولكي يقرر عبد القاهر مذهبه هذا فإنه يتعمق في دراسة المجاز والتشبيه تعمقاً لم يسبق إليه ولكن من غير أن يخرج بحال عن الحدود التي رسمها أرسطو، أما المجاز العقلي فهو من ابتكار عبد القاهر"[1] .. لما يكتنفه من كثير مبالغة، وبخاصة إذا صدر ممن يطربون لتجريد أسلافنا من أي فضل ليرجعوه هم بمعرفتهم إلى من له عليهم كل الفضل .. وإذا علمنا أن عبد القاهر لم يخرج – على ما هو معروف عنه – من بلاده التي شب وترعرع فيها.

ومع احتمال صحة القول بأن تأثر عبد القاهر في باب المطابقة بما قاله اليونان لكونهم "أو غيرهم هم وحدهم الذين اكتشفوها المطابقة ونقلت عنهم"، فإن ثمة احتمالاً لدى أهل الاختصاص يرى أن ذلك ادعاءٌ، ولا يعدو أن يكون"من المبالغة المرفوضة"[2]، وعليه فما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .. ومما يؤكد سقوط الاستدلال ويدعمه أن "عبد القاهر ناط الإعجاز في القرآن الكريم ببيانه ..فالبلاغة التي يعالجها هي أساساً بلاغة القرآن، أي بلاغة القول المعجز وليست هي البلاغة على الإطلاق"[3]، وأن "المقتضى نتاج النظم"[4]، "والاستعارة وليدة النظم .. وهي في صميمها عمل عقلي معنوي وتصرف في دلالات الكلم نتيجة لما تكتسبه من علاقات جديدة بسبب النظم"[5].

وأضيف إلى ذلك أيضاً أن كل واحد من أولئك الأربع – عبد القاهر والسكاكي والخطيب والسعد – الذين يمثل كل واحد منهم ملمحاً من ملامح التجديد في كل ما خلفه لنا السابقون من الموروث البلاغي في مراحله الأولى، قد تأثر بالوسط الذي نشأ فيه فكان عطاؤه نتاجاً لما طبع عليه وثمرة نبتت وأينعت في مكانها وفي أوانها .. فلقد كان عبد القاهر ناقداً وأديباً ذواقة أظهر براعة نادرة وروعة يضرب بها المثل في التحليل وسَبْر النصوص .. خلافاً للسكاكي الذي غلبت عليه العجمة فجعلت منه مجرد ناقد يقيم مسائل البلاغة على أسلوب منطقي فلسفي، كما أنه كان جمَّاعاً للعلوم وكأنه استقى من العجم – إلى جانب طريقتهم في التناول – طريقتهم أيضاً في التبويب والتنظيم، فانعكس ذلك بدوره على خطته ومنهجه .. وخلافاً للسعد الذي كان أضعف من سابقه ذوقاً لضعف

([1]) مقدمة النثر د. طه حسين ص ٢٨ط سنة ١٩٣٩ بالقاهرة.
([2]) مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث د. إبراهيم الخولي ص ٦٢.
([3]) السابق ص ١٨٠وينظر ما بعدها.
([4]) السابق ص ٢٢٥ وينظر ما بعدها.
([5]) السابق ص ٢٦٥ وينظر ما بعدها.

سليقته العربية الذي أغرقه في البعد عن الذوق الأدبي .. وخلافاً للخطيب الذي نشأ في مصر فكانت بلاغته انعكاساً للسهولة والبساطة اللتين سادتا في الوسط العلمي بمصر واستطاع من خلالهما أن يمزج في كتابيه الإيضاح والتلخيص – في ذكاء منقطع النظير – بين الروح الأدبية والتقريرات المنطقية، فجاء لاسيما الأول منهما "سهلاً جامعاً لكثير من أمهات المسائل بعبارة واضحة فيها روح عبد القاهر الجامع بين الرصانة والتحقيق العلمي الذي امتاز به كتاباه"[1] .. ونحن بدورنا لو استحضرنا هذه المعاني لوضح لنا مدى انعكاس العامل الطبعي والبيئة الاجتماعية على التراث البلاغي الذي وصلنا، ومدى لطف الله بهذا العلم وإرادته لأن تكتمل دائرته وتتم منظومته ويستوي على سوقه، ويقف على رجليه ويحقق الهدف المرجو من وراء نشأته تنظيراً وتطبيقاً .. ولاتضح لنا مع كل هذا سر تميز وانفراد كلٍّ بما تميز وتفرد به عن الآخر، وأن تعدد وتنوع طرق تناول الدرس البلاغي لدى السابقين إنما كان لتعدد وتنوع تلك المنازع والطباع التي انعكست بدورها على مؤلفاتهم.

ولا دلالة لما سبق سوى التأكيد على أن الوسط الذي نشأ فيه عبد القاهر كان له دور بارز في تأسيس علوم البلاغة على يديه وإن لم تكن قد قسمت بعد، فقد أهلته البيئة العلمية التي نشأ فيها لأن ينشغل ضمن من انشغلوا بالبحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وعن سر فصاحته، وهداه استقراؤه لمقولات معاصريه إلى إرجاع ذلك إلى (النظم) الذي جاء عليه هذا الكتاب الخالد، وهو اصطلاح كان يشيع في بيئة الأشاعرة، إذ كانوا – وعلى رأسهم الباقلاني – يعللون إعجاز القرآن بنظمه المخصوص، وليس إلى حسن اللفظ كما زعم بعض المعتزلة .. وكان عبد الجبار – على اعتزاله – ينفي أن يكون مرجع الفصاحة التي يفسر بها الإعجاز القرآني والتي يتفاضل فيها البلغاء إلى اللفظ على حدة أو إلى المعنى الغفل أو إلى الصورة البيانية بمنأى عن مكانها في النظم، وإنما إلى الأسلوب والأداء والصياغة النحوية للتعبير، فأضحى ذلك شعاعاً مضيئاً ألهم عبد القاهر تفسيره للنظم .. إذ طفق يستكشف لأول مرة أسس علم المعاني ويصوغها صياغة تنبض بالحياة بعد أن جمع – في دراسة فاحصة – كل الملاحظات المتصلة بالإعجاز القرآني، ومضى يجمع ملاحظات سابقيه في علم البيان التي كانت تستقل عن الإعجاز في كتابات ابن المعتز وقدامة والآمدي وأبي أحمد العسكري وعلي بن عبد العزيز الجرجاني وأضرابهم وأخضعها لضرب من التحليل العقلي والنفسي البصير، وأضاف إلى هذه وتلك ما أفاده من كتابات اللغويين والنحويين أمثال سيبويه وابن دريد وأبي علي الفارسي..ونفذ من خلال ذلك كله إلى وضع نظريتي (المعاني) و(البيان) بحيث أصبحت لكل نظرية وحدتها الشاملة[2]، وطفق يلتمس شعبهما في نصوص كثيرة من التنزيل ومن الشعر والنثر وهي نصوص حللها تحليلاً عقلياً بديعاً شفعه بذوق مرهف وحس دقيق، وخلفه الزمخشري يطبق تطبيقاً رائعاً قواعد العِلمين جميعاً في تفسيره لآي الذكر الحكيم، مضيفاً إليهما من لفتاته الذهنية البارعة ونظراته التامة النافذة ما جعلهما يبلغان حد الكمال[3].

وعلى نحو ما كان للبيئة أثرها وانعكاسها على الدراسات البلاغية في طورها التجديدي الأول تصنيفاً وتوجهاً وأسلوباً ومنهجاً، كان لها أثرها وانعكاسها في طوريها الثاني والثالث وتحديداً في القرن السابع الهجري وبدايات القرن الثامن حيث (مفتاح العلوم) الذي وضعه السكاكي ت٦٢٦، وحيث تلخيصه وشرح هذا التلخيص اللذين وضعهما الخطيب القزويني ت ٧٣٩ .. فـ "في هذه الآونة كان للمنطق والفلسفة سلطان مطاع لا يُرد له قول ولا يُنقض له أمر، وأصبحت الأساليب العربية تقاس بحدود المنطق ورسومه، ولا يقام لها وزن إن لم يجللها بميسمه ويختمها بطابعه، ولا

([1]) تاريخ البلاغة والتعريف برجالها . للمراغي ص ٣٤ بتصرف.
([2]) وكان هو يرى أنهما ومعهما البديع علم واحد تتشعب مباحثه.
([3]) ينظر البلاغة تطور تاريخ د. شوقي ضيف ص٦، ١٦١، ١٦٢، ٢٧١.

اعتداد لها إن لم يكن لها منه – على حد قول المراغي – طُفراء، ويكون لها إليه انتساب واعتزاء، وصار الكاتب والشاعر يشيد بذكراهما – يعني المنطق والفلسفة – ويحلّي كل منهما كلامه بحلاهما، وعلى مقدار ما يوضع من مصطلحاتهما في الكلام يعلو شأنه ويرتفع في الأعين قدره، وصار الإغراب – بذكر الكم والكيف والأين والمتى والعدم والملكة والماهية والكيفية والاصْطُقُصّات وأرسطو وأفلاطون، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والمهملة والكلية والجزئية، والسالبة والموجبة، والكلي والجزئي، والطعوم والروائح، والجنس والفصل والعرض العام والخاص، والمعدولة المحمول والموضوع، والسالبة تصدق بنفي الموضوع – شِنِشة الأدباء والمتأدبين، ولا تروج سوق لأديب أو شاعر إلا إذا نهل من معينهما وارتوى من حوضهما"[1].

فهل تنتج مثل هذه البيئة إلا مثل ما صدر عن السكاكي في مفتاحه، وإلا ما يضر بالذوق والملكة ويقضي على النظرة التحليلية والروح الأدبية في تحليل الشواهد والنصوص؟ .. وقد هون من أمر ذلك – إلى حد كبير – تعديل استلزمه مقتضى الحال وراعه الخطيب القزويني وأملته عليه بيئته المصرية وأشاد به في مقدمة تلخيصه قائلاً: "لما كان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي أعظم ما صُنف في علم البلاغة من الكتب المشهورة نفعاً، لكونه أحسنها ترتيباً وأتمها تحريراً وأكثرها للأصول جمعاً، ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلاً للاختصار مفتقراً إلى الإيضاح والتجريد، ألفت مختصراً يتضمن ما فيه من القواعد، ويشتمل على ما يُحتاج إليه من الأمثلة والشواهد، ولم آل جهداً في تحقيقه وتهذيبه، ورتَّبته ترتيباً أقرب تناولاً من ترتيبه، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريباً لتعاطيه، وطالباً لتسهيل فهمه على طالبيه، وأضفت إلى ذلك فوائد عثرت في بعض كتب القوم عليها، وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها وسميته (تلخيص المفتاح)"[2].

ولك أن تستشعر في كلام الرجل حجته وغرضه وعلته من التجديد، وفوق هذا تواصله في العطاء وصلة حاضره بماض سواه، وتستشعر مع كل ذلك حسن الأدب في الانتقاد وتقدير ذوي الفضل وإنزالهم منازلهم، وهذا كله مما ينبغي أن يتحلى به أهل العلم[3] .. ولرب ضارة نافعة، فقد استقام – على يد هذين الرجلين مع ما أضفاه عبد القاهر قبلاً وخلعه على البحث البلاغي من صياغة تنبض بالحياة – عود البلاغة، واستبان نورها وأضحى التجديد في تناولها ومواكبة روح أي عصر سهل المنال، وما كان له أن يكون كذلك لولا أن قيض الله لعلوم البلاغة من يضبط حدودها وقواعدها ويُحكِم أبوابها ومسائلها ويرتِّب فصولها ومباحثها.

وما بذله أصحاب الشروح والحواشي من جهد رأوا أنه مناسب لعصورهم ومواكب لأزمانهم، لعله يصب في هذا الباب .. غير أن الذي لوحظ في حقبة وطور الشروح والحواشي تلك في زمن امتد طوال القرون الثامنة إلى الثانية عشرة وما صاحب ذلك من شروح على الشروح وتقريرات على الحواشي، اتجهت عناية أصحابه إلى خدمة المؤلفات في علوم البلاغة بدل اتجاهها في خدمتها، وعزاؤنا أن لا يزال الباب مفتوحاً أمام التجديد طالما أنه يبني ولا يهدم وطالما أنه يتم في الإطار العلمي – لا الغوغائي – ويصب في تحقيق الهدف الأساسي الذي من أجله نشأ البحث البلاغي، وهو الحفاظ على الفصحى وعلى الدين الذي نزل بها، وتحري الهدف الرئيس وهو استظهار ما به وقع الإعجاز في القرآن .. فلا يزال المدى متسعاً أمام كل من يريد أن يضفي على الدرس البلاغي بهاءه ويعيد مجده التليد وصفاءه فيجمع بين الأصالة والمعاصرة، وإنـــه ليتسع ليشمل على نحو ما سيأتي ثقافات الشعوب والأمم قاطبة ..ولكن أنى لنا بمن يقتحمون هذه المفاوز وتيك الصعاب؟

---

(1) تاريخ البلاغة للمراغي ص ٢٧، ٢٨وتلك – وأيم الله – بعينها التي أفسدت عقيدة الأمة.

(2) تلخيص المفتاح بشرح السعد المسمى (مختصر المعاني) ص ٧.

(3) ولعل في ذلك الدليل الكافي على مدى التهويل من قِبَل أولئك المتقولين على أئمتنا بأن ثمة صراعاً قديماً نشب بين مدرستين عنيتا بالدرس البلاغي هما: (المدرسة الكلامية) و(المدرسة الأدبية) .. ينظر فن القول ١٢٦: ١٥٦.

رابعاً: طرائق التجديد المعاصرة في ميدان الدرس البلاغي واتجاهاتها:

كان لابد ومن الطبعي – وقد مضى على بلاغتنا أزمان وأزمان وهي كما هي – أن ترتفع الأصوات المنادية بتجديد الخطاب البلاغي.

أولاً: لأن "كل شيء في الدنيا يخضع لناموس التطور وسنة التحول، ومن ذلك العلوم والمعارف والثقافات والفنون، فهي – على ما مر بنا – تتغير عصراً عن عصر، وتتطور من جيل لآخر تطوراً يلائم روح العصر ويناسب ظروف أهله، وما لم يستجب منها لسنن التطور وفقاً لمتطلبات العصر، بان شذوذه ووضح جموده وظهر من أفراد العصر من ينادي بتطويره ويدعو لتجديده ويعمل على تحريكه ليمضي مع الحياة ويعبر عن المجتمع، وتراثنا البلاغي من هذا الناموس التطوري الذي هو أمر طبعي وشيء ضروري لاستمرار الحياة وبقاء الكون"[1].

وثانياً: لأن البحث البلاغي في مراحله الأخيرة – على ما مر بنا أيضاً – لم يخضع لهذا الناموس، فقد ظلت كتب البلاغة جامدة، ومن الصعوبة والغموض بحيث تحتاج إلى شرحها، وقد يحتاج الشرح إلى شرح آخر فتؤلف حاشية تكشف عن غموض الشرح الأول وصعوباته، وكلها لا تغني شيئاً في تربية الذوق وتصوير محاسن الكلام، كما أنها "لم تكن صدى لأدب العصور التي ألفت فيها[2]، وغدا كل منها صورة من كتاب آخر .. وتعرف هذه المرحلة لدى دارسي البلاغة ببلاغة المتأخرين، وأصحابها يعرفون بالبلاغيين المتأخرين، وتبدأ هذه المرحلة ببدر الدين بن مالك صاحب (المصباح) وأبي يعقوب السكاكي صاحب (المفتاح) والخطيب القزويني صاحب (تلخيص المفتاح) الذي دارت البلاغة في فلكه وما يزال يطوف المؤلِفون في البلاغة حوله بالشرح والتوضيح حتى هذه اللحظة"[3].

ولا غرابة إذاً أن تتعدد أصوات الغيورين من أبناء العروبة والإسلام – حتى من غير دارسي البلاغة – بالمناداة بإعادة الشباب والفتوة إلى عِلم هو من علوم العربية من الأهمية بمكان، وهذا ما كان بالفعل وأخذ أكثر من اتجاه:

= فثمة منحى يرى أن تستمد البلاغة جديتها من إحياء البلاغة الأصيلة الصافية، وذلك بـ <u>(الرجوع إلى منابعها الأولى)</u> التي كانت عليها أيام عبد القاهر .. وقد بادر بتولي زمام هذه الاتجاه الإمام الشيخ (محمد عبده) الذي يعد "أول من رفع لواء تجديد البلاغة في العصر الحديث[4] .. وكانت دعوته إلى تجديد البلاغة وتطويرها جزءاً من دعوته بتعديل مناهج التعليم في الجامع الأزهر الشريف، وإدخال العلوم العصرية ضمن هذه المناهج لتساعد في تغيير واقع العرب والمسلمين.

ويجئ تجديده للبلاغة آية في العجب عندما يلفت الأذهان إلى كتابي عبد القاهر (الدلائل) و(الأسرار)، ومثلاً في الاستغراب عندما يطالب باستمداد الدرس البلاغي منهما، وما يلبث العجب أن يزول والاستغراب أن يُدْبِر بعد أن طُبع الكتابان وأقبل الطلاب ينهلون منهما البلاغة المصفاة من شوائب العجمة الخالية من النتوءات والتعقيدات وليجدوا فيها خير معين لهم على <u>فهم أسرار كتاب الله وتذوق جمال النصوص واستشعار محاسنها</u> فوجد طلابُ البلاغة في هذين الكتابين بلاغة فطرية قديمة جديدة، ومن ساعتها زاد تعلق الدارسين بهذين الأثرين الغاليين اللذين أشاد

---

(1) المدخل إلى دراسة البلاغة د. فتحي فريد ص ٢.

(2) على نحو ما كانت في نشأتها الأولى بدء بأبي عبيدة معمر بن المثنى في (مجاز القرآن)، ومروراً بالجاحظ في (البيان والتبيين) وأبي هلال العسكري في (الصناعتين) والآمدي في (الموازنة) والجرجاني في (الوساطة) والرماني في (النكت) والخطابي والباقلاني في (إعجاز القرآن) والخفاجي في (سر الفصاحة)، وختاماً بعبد القاهر في (الدلائل) و(الأسرار) والزمخشري في (الكشاف) وابن الأثير في (المثل السائر).

(3) المدخل د. فتحي فريد ص ٣.

(4) ولا غرو فقد كانت ثورته على الجمود لا حد لها، كما كانت مناشداته الموجهة إلى المصريين خاصة والعرب عامة تنادي إلى نبذ الكسل والخمول وتحريك أفكارهم وعقولهم للإفادة من المدنية الأوربية الحديثة.

بهما كل من درس البلاغة ودرَّسها، والفضل الأكبر في ذلك وفي بعثهما يرجع للشيخ (محمد عبده) الذي عد تجديده في البلاغة التجديد الأصيل الذي ينبغي أن تكون عليه البلاغة في كل أزمانها لتكون دائماً جديدة"[1].

= وهناك (الاتجاه النفسي) الذي يرى أصحابه أن تطوير البلاغة وتجديدها يكون بالتخفيف من ثقل القواعد والتقليل من الخلافات بين أصحاب الآراء ووصلها بالحياة والمجتمع، وبالاستعانة في دراستها بعلوم النفس والأخلاق والجمال حيث يعينها ذلك على تأدية رسالتها ويُمَكّنُها من بلوغ هدفها المتمثل في الوقوف على محاسن الصورة الأدبية والإحساس بروعتها وجمالها، ومن أنصار هذا الاتجاه (أحمد أمين) و(العقاد) و(الرافعي) و(طه حسين) و(أمين الخولي) و(محمد خلف) ومن نهج نهجهم.

= و(الاتجاه البياني)، ويعد امتداداً للاتجاه النفسي وأثراً من آثاره، فصاحِبتُه (بنت الشاطئ) تذكر في تقديمها له أنها تقتفي فيه أثر أستاذها وزوجها (أمين الخولي) .. ويقوم على التناول الموضوعي لما يراد فهمه من القرآن – مثلاً – بجمع كل ما في كتاب الله من سور وآيات في الموضوع المدروس، ومعرفة أسباب النزول وأماكن نزول الآيات والوقت الذي نزلت فيه حيث يعين ذلك على تفهم ما حول النص، كما يقوم على البحث في دلالات الألفاظ والوقوف على استعمالاتها الحقيقية والمجازية واستقراء كل المواطن التي استعمل فيها القرآن الكريم، والاحتكام إلى سياق النصوص لتوضيح المبهم أو تخصيص العام حيث يفسر القرآن بعضه بعضاً[2].

= و(الاتجاه الأدبي)، ويُعنى بتوثيق صلة البلاغة بالأدب على نحو ما كان عليه الحال في أزهى عصورها، ومن أعلام هذا الاتجاه (أحمد حسن الزيات) الذي مزج في كتابه (دفاع عن البلاغة) بين تراث البلاغة الأصيل ودروس النقد العربية بما يدل على استيعاب التراث البلاغي لكل جديد وعلى ملائمته لروح العصر، وبما يُظهر مدى قيمته بالنسبة للحياة وامتزاجه بالمجتمع، هذا إلى ما في الكتاب من تنويه بأهمية اللغة والطبيعة والنفس باعتبارها آلات يستعين بها دارس البلاغة، وما فيه من حديث عن الذوق والأسلوب، وغير ذلك مما يجعل الكتاب يتفق مضمونه مع عنوانه وينطبق اسمه على مسماه.

كما يمثله (أحمد الشايب) الذي ينادي في كتابه (الأسلوب) بتنقية البلاغة من أنواع الفلسفة وطابع الجدل وأن يتجه بها إلى دراسة الأساليب وخصائصها وربطها بالأدب وغيره[3] .. و(على الجارم) و(مصطفى أمين) في كتابهما (البلاغة الواضحة) فقد جمعا فيه بين النصوص الأدبية الجيدة والمتنوعة والقاعدة الموجزة الواضحة على منهج المتأخرين في تقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع، مع التنويه بأنواع الأساليب وخصائصها، ويتمثل المنحى الأدبي في الكتاب بتخففه من أثقال القاعدة وغمره بالنصوص المتنوعة التي تستنبط منها القاعدة بطريقة موجزة[4] .. و(حفني شرف) وهو من أساتذة البلاغة الذين ألفوا فيها ودعوا إلى تجديدها وتطويرها، ويدعو ضمن ما يدعو إلى توثيق صلة البلاغة بالأدب باعتبار أن الأدب صورة الحياة يتطور بتطورها، كما يدعو إلى الإفادة بعلم الجمال وأبحاث الذوق الفني وعلم النفس الأدبي، ويرى أن للتجديد غرضين يتمثلان في تسهيل دراسة المواد الأدبية ويحققه المنهج الصالح والكتاب المنظم والمعلم الكفء، وفي جعل البلاغة مادة من مواد النهوض الاجتماعي تتصل بمشاعر الأمة وتُرضِي كرامتها الشخصية، ويرى أن لا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بتنقية البلاغة من الجدل والاعتراضات والإقلال من القواعد، مع الإكثار من الشواهد والبعد عن طريقة التلخيص وشروحه وخلط مسائل البلاغة

([1]) المدخل ص ٦، ٧ بتصرف.

([2]) ينظر مقدمة التفسير البياني لقرآن الكريم د.عائشة عبد الرحمن ط دار المعارف.

([3]) ينظر الأسلوب لأحمد الشايب ص ٣٩ ط رابعة.

([4]) ينظر على سبيل المثال في البلاغة الواضحة ص ١٢: ١٧.

بالفلسفة[1] .. و(محمد رجب البيومي) وهو من أساتذة البلاغة والنقد النابهين الذين يمتلئون ثورة على بلاغة المتأخرين ويعدونها حجر عثرة في سبيل النمو الأدبي، ويدعو إلى تحريرها من القيود التي وضعوها فطمست البيان القرآني وحجبته عن الأنظار، ويرى أن إصلاح ذلك إنما يتم بدراسة البلاغة على هُدى من علم النفس ومن خلال الأدب وبمنهج البلاغيين المتقدمين الذين حققت جهودهم للبلاغة أهدافها[2].

= وهناك أيضاً (الاتجاه التربوي) وقد تبناه علماء التربية الذين يوالون النظر في مناهج التعليم من حين لآخر لتعديلها وتطويرها بما يجعلها متناسبة مع قدرات الطلاب على اختلاف مراحلهم الدراسية وتفاوت أعمارهم، ومن هؤلاء (عبد العليم إبراهيم) الذي عمل مدرساً للبلاغة في جميع مراحل التعليم، وأودع ثمرة تجاربه وخلاصتها كتابه القيم (الموجه الفني)، ويرى فيه أن تدريس البلاغة على الطريقة القديمة المبتناة على التعاريف والتقاسيم والضوابط وبتر الشواهد لا تحقق الغرض منها، ولا تتفق مع نظريات التربية الحديثة التي تجعل البلاغة وحدة متكاملة ليس بينها فواصل وتقضي على العزلة التي بينها وبين الأدب بجعلها جزءً من الدراسات الأدبية المعنية بالتحدث عن الجو النفسي للفكرة أو النص وعن عاطفة الأديب واستجابة القارئ ونحو ذلك[3].

= وهناك الاتجاه الرامي إلى (تجديد البلاغة بالبلاغة)، وهو اتجاه يرى أن التجديد في ميدان الدراسات البلاغية لا يتأتى بتمييع البلاغة ولا بطمس معالمها بغلبة النزعة النفسية في تناولها أو البيانية أو التربوية أو حتى الأدبية، وإنما بالحفاظ على كيانه المستقل وروحه المتميزة "وسبيل ذلك يتمثل في الوقوف على المقاييس البلاغية في مكانها من كتب البلاغيين المتقدمين، والاجتهاد في محاولة تطبيقها على النصوص الأدبية الحديثة، وفي هذا ما يربط البلاغة بالمجتمع ويصلها بالحياة".

يقول أ.د/ فتحي فريد – وهو من أنصار هذا الاتجاه والمنادين به – : "وقد جرب هذا المنهج بعض أساتذة البلاغة المعاصرين، فـ (أحمد موسى) – عليه رحمة الله – في (البلاغة التطبيقية)[4] يجمع بين القاعدة والنص مع الاهتمام بإبراز الأسرار البلاغية وما يضفيه البيان من حسن على الأساليب، إذ الكتاب يدور حول فنون البيان وبعض فنون البديع، متأثراً بمنهج عبد القاهر في عقد الموازنات الأدبية بين النماذج المختلفة التي يشملها فن بلاغي واحد، وغير ذلك مما يجعل الكتاب مفيداً في ميدانه وفريداً في مجاله، ومتطابقاً مع عنوانه، غير أنه لم يضم قدراً وافياً من الأساليب المعاصرة"[5]، وينسحب ذلك – بالطبع – على ما يكتبه أساتذة الأزهر الأعلام وعلى رأسهم أ. د/ محمد أبو موسى في كتبه (خصائص التراكيب) و(دلالات التراكيب) و(التصوير البياني)، وكذا أ. د/ بسيوني فيود في كتبه (علم المعاني) و(علم البيان) و(علم البديع)، وغيرهما كثير.

خامساً: أطروحات تجديد الدرس البلاغي المعاصرة في ميزان النقد العلمي:

من خلال تتبع أطروحات التجديد السابق ذكرها لاحظ المعنيون بتطور الدراسات البلاغية – وصاحب (المدخل إلى دراسة البلاغة) واحد منهم – عدة ملاحظات جديرة بالاعتبار.

أولها: انه وبتقصي الجهود التي بذلت ودعا أصحابها المعاصرون إلى تجديد بلاغتنا العربية وطفقت أصواتهم تنادي بتنقيتها من الإلغاز والتعقيدات، لوحظ أن الاتجاهات التي سعت لتحقيق هذه الأهداف أخذت طابعين: "الطابع الأول: مؤلفات بذاتها في التجديد أودعها أصحابها خلاصة

---

(1) ينظر الصورة الأدبية بين النظرية والتطبيق د/ حفني شرف ص ٤٧٠، ٤٧١.

(2) ينظر البيان القرآني د/ محمد رجب البيومي ص ٨١، ٨٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(3) ينظر الموجه الفني لعبد العليم إبراهيم ص ٣٠، ٣٠١ والمدخل إلى دراسة البلاغة ص ٦ وما بعدها.

(4) وكذا كتابه في (الصبغ البديعي).

(5) ينظر (المدخل إلى دراسة البلاغة) ص ٢٧، ٢٨ وينظر رأيه في تجديد البلاغة ص ٢٢ وما بعدها.

آرائهم، ومن هذه المؤلفات (البلاغة العصرية) لـ (سلامة موسى)، و(دفاع عن البلاغة) لـ (أحمد حسن الزيات)، و(فن القول) و(مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب) لـ (أمين الخولي)، و(الأسلوب) لـ (أحمد الشايب) .. وغيرها.
الطابع الثاني: مؤلفات كتبها أصحابها حول بعض موضوعات البلاغة، وذكروا فيها آراء لهم في تجديد البلاغة وعلى صفحات محددة، وهي معظم الكتب المعاصرة في البلاغة والنقد، ومنها: (النقد المنهجي عند العرب) لـ (محمد مندور)، و(البلاغة تطور وتاريخ) لـ (شوقي ضيف)، والنقد الأدبي الحديث) لـ (أحمد كمال زكي)، و(الصبغ البديعي في اللغة العربية) لـ (أحمد موسى)، و(البيان العربي) لـ (بدوي طبانة)، و(الصور البيانية بين النظرية والتطبيق)، و(الصور البديعية بين النظرية والتطبيق) لـ (حفني شرف) .. وغيرها، ولا معنى لهذا سوى أن التجديد في ميدان البحث البلاغي شغل حيزاً كبيراً من اهتمام علماء الأمة ومنظريها.
ثانيها: أن معظم الذين ذكرت أسماؤهم مارسوا تدريس البلاغة، وهذا يعني أن آراءهم في التجديد جاءت في معظمها إثر معاناة ونتيجة خبرة، وحسماً لمصاعب قد اعترتهم وعواقب صادفتهم، مما يجعل آراءهم حول تجديد البلاغة جديرة بالنظر والاعتبار.
ثالثها: أن الاتجاهات التي اقترحها أربابها ومر ذكرها، هي في مجملها اتجاهات لا بأس بها، شريطة ألا تطغى على الدرس البلاغي أو تكون على حسابه، فالمتأمل في الاتجاه النفسي مثلاً يجد أن مؤلفات البلاغيين القدامى حافلة بما يؤكد العلاقة بين البلاغة ومراعاة الجانب النفسي لدى المتكلم والمخاطب على حد سواء، وذلك باعتراف أصحاب هذا الاتجاه أنفسهم المنادين بها، فأمين الخولي – على سبيل المثال – يذكر في (فن القول) أن البلاغيين القدامى حاولوا على قدر طاقتهم الربط بين البلاغة وعلم النفس[1]، ومحمد خلف يرى أن "طريقة التذوق والتأمل الباطني والاهتمام بالنفس بمراعاتها في مختلف أحوالها، بلغت القمة لدى عبد القاهر في (أسرار البلاغة)، فالمؤلف – يعني عبد القاهر – لا يفتأ يدعوك بين لحظة وأخرى إلى تجربة الطريقة النفسية التي يسميها المحدثون (الفحص الباطني) وهي أن تقرأ الشعر وتراقب نفسك أثناء قراءته وعقب القراءة، وتتأمل ما يعروك من الهزة والارتياح والطرب والاستحسان، وتبحث عن مصادر هذا الإحساس وبواعث ذلك التأثير، إذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت، فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت وعن ماذا ظهرت"[2].
ولا يعني إقرارهما هذا – مع مطالبتهما بالتجديد – إلا أنهما ومن كان على شاكلتهما، لا يكتفون في هذا الجانب بما لدى القدماء، وأنهم إنما يرومون إغراق البحث البلاغي باستخدام المنهج النفسي وهو ما بدا بالفعل في مطالبة (أمين الخولي) بضرورة أن "تُقدَّم بين يدي الدرس البلاغي مقدمة نفسية يَعرف الدارس فيها شيئاً عن الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى من ناحية عمله الفني، ويَعرِف مثل هذا عن الخيال والذاكرة والإحساس وعن الذوق، كما يَعرِف الكثير عن أمهات الخوالج الإنسانية من حب وبغض، وحزن وفرح، وغيرة وانتقام وما إلى ذلك مما هو مادة المعاني الأدبية الكبرى في الآداب الإنسانية كلها"[3].
والحق "أن المغالاة في تقدير الاتجاه النفسي في دراسة البلاغة لا يجعلها تحقق أهدافها الدينية والأدبية والنقدية، ومن أوضح المثل على هذا دروس البلاغة التي تقدم الآن لطلاب اللغة العربية في كثير من كليات الآداب والتربية على منهج (أمين الخولي)، فإنها في عمومها لا تحقق أهداف البلاغة، وهي إن أفادت الطلاب في معرفة أنواع الأساليب ومذاهب النقد وعناصر الشعر وغير ذلك، فليس لها من فائدة محققة في كيفية الموازنة بين الأساليب وتمييز الجيد من الرديء وإدراك

(1) (فن القول) لأمين الخولي ص ٢٥٩، ٢٦٢ وما بعدهما.
(2) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده لمحمد خلف الله، المقدمة.
(3) ينظر مناهج التجديد لأمين الخولي ص ١٤٦: ١٤٨.

الأسرار البلاغية لكلام الله وهي أهم ما كانت من أجله الدراسات البلاغية"[1] .. كما أن من شأن ما ذكره (الخولي) هنا أن يذهب برونق البلاغة ويفقدها روحها ولبابها، وأن يبعدنا بها وعنها عن نبعها الصافي ويجعلنا نذوب في بحار ودهاليز وترهات وأباطيل الغرب ونظرياته في علم النفس والجمال، وهو ما حذر منه كبار النقاد المعاصرين "فـ (محمد مندور) يرى أن تطعيم درس الأدب بعلم النفس ينبغي أن يكون من خلال درس الأدب وما فيه من ظواهر نفسية، وأن يكون كالضوء الداخلي الذي يشع من نفس الناقد فيعينه على استخلاص أصالة الأديب الخاصة، ولكن من غير إقحام لهذه المعرفة على الأدب ونقده، لأن الأدب منبع لكل تلك المعارف"[2]، وهو ما يراه سيد قطب فهو الآخر يذهب إلى "أن الإسراف في استخدام المنهج النفسي في الدراسات الأدبية والبلاغية يحوِّل البلاغة والأدب إلى دروس في علم النفس"[3].

= وإذا ما يممنا وجوهنا شطر الاتجاه البياني، فإننا نلحظ أن الذين نادوا به عجزوا عن أن يقدموا لنا شيئاً ذا بال يخدم البلاغة العربية أو القرآنية ويبعث فيها روح التجديد المنشودة، فلقد جاء التفسير البياني – الذي أرادت بنت الشاطئ من خلاله أن تبدي وجهة نظرها حول تجديد البحث البلاغي – "تفسيراً لغوياً لألفاظ القرآن الكريم على غرار بعض التفاسير التي أغرق أصحابها في الاهتمام باللغة، فكان أن خرجت من دائرة التفسير إلى دائرة الأبحاث اللغوية، ومن الأمور البدهية – والكلام هنا للدكتور فتحي فريد – أن اللغة للكاتب البلاغي والبياني وسيلة لا غاية، فهو يستعين بها على قدر ما ينتهي به إلى الغرض المقصود والمعنى المطلوب .. وكل البلاغيين المتقدمين والمتأخرين كانوا على قدم راسخة من التمكن في اللغة والإحاطة بوجوه استعمالاتها، ومع هذا فقد كان استخدامهم لها بالقدر الذي يخدم الفكرة البلاغية، ولم يكن البحث اللغوي ذاته أو نقل مفردات اللغة من متونها هدفاً بعينه.

بل وجد من البلاغيين من حذر من الغلو في الاهتمام بالجانب اللغوي في الدرس البلاغي لتأثيراته الضارة على الفصاحة والبلاغة، من هؤلاء يحيى بن حمزة العلوي إذ يقول في مقدمة طرازه: (لهذا فإنه من كان من المفسرين نظره في تفسير كلام الله مقصوراً على معرفة المعاني الإعرابية وبيان مدلولات الألفاظ الوضعية لا غير، من غير بيان ما تضمنه من أنواع الفصاحة والبلاغة وتقرير مواقعهما الخاصة، فإنه يُعدُّ مقصراً في تفسيره لكونه قد أخل بمعظم علومه وأهملها، وأعرض عن أجل مقاصده وتركها، وهو معرفة الإعجاز لأنه موقوف على ما ذكرنا من معرفة الفصاحة والبلاغة جميعاً، ومن اعتمد في تفسير كلام الله على ملاحظة جانب الفصاحة والبلاغة، ونزَّل المعاني القرآنية عليها، سلم عن أكثر التأويلات النادرة وبعُد عن حمله على المعاني الركيكة التي وقع فيها كثير من المفسرين كما هو مذكور في كتبهم)"[4].

وأضيف أن هذا حق وينسحب بدوره على من أراد من أرباب الاتجاهات التجديدية الأخرى – أعني الأدبية أو التربوية – أن يغلبها على الدرس البلاغي، فإن هذه الاتجاهات لن تؤتي ثمارها إلا إذا كان المزج بينها وبين البلاغة بالقدر الذي يجعل للأخيرة استقلالها ويحفظ لها تميزها، وعليه فلن تكون هذه الاتجاهات مغنية عن دراسة البلاغة على النهج الفني المتوارث الذي يربي ملكة النقد والتذوق، ويمكن الطلاب من فقه أسرار الإعجاز البلاغي في كتاب الله تعالى.

رابعها: أنه وبالبحث والتنقيب عن منازع التجديد لدى ما ساد من اتجاهات معاصرة في ميدان الدراسات البلاغية، لاحظت أن ثمة تيارين ينزع إليهما أرباب الحداثة، أحدهما تيار وافد إلينا من الغرب وهو أبرزهما، وثانيهما قديم يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثامن الهجري.

---

(1) المدخل. د/ فتحي فريد ص ١١.

(2) النقد والنقاد المعاصرون د/ محمد مندور ص ١٠٤ مكتبة نهضة مصر.

(3) النقد الأدبي أصوله ومناهجه سيد قطب ص ٢٠٨ وينظر المذاهب النقدية د/ ماهر فهمي ١٧٤ والمدخل ١٠.

(4) (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) للعلوي ١/ ١٩ والمدخل د/ فتحي ١٣، ١٤.

فالدكتور أمين الخولي حين رأى أن تتسع دائرة البحث البلاغي عما كانت عليه من قبل فلا تقتصر في الألفاظ على المفردة والجملة، ولا تقتصر في المعاني على المعاني الثانوية بل تتسع لتشمل سائر فنون الأدب، اقترح أن يتم ذلك على مراحل تنحصر – حسب "أولئك الباحثين الآخرين الذين لا يتكلفون في تنظيم البلاغة الضابط النظري أو يحصرونها في شيء بعينه لا تعدوه، وإنما يردون ذلك إلى حاجة العمل الأدبي وطبيعة الفن القولي ويلمون بكل ما يحتاج إليه من بحث ونظر"(1) – في ثلاث، هي: (الإيجاد) ويعني به خلق المتفنن لجملة الأفكار أو الآراء أو المعاني، ثم (الترتيب) الذي هو تنسيق المعاني وصوغها في نظام يراه المتكلم خير ما تؤدى به، ثم (التعبير) الذي يعني الإخراج المصاغ فيه هذه المعاني المرتبة في جمل وفقر وأساليب، بعد اختيار ألفاظها(2).

وقد عرضوا في البحث عن الخطوة الأخيرة، للحديث عن (الإبانة والفصاحة) حيث تناولوا المذاهب الأدبية في الوضوح والمطابقة والتناسق والطلاوة وأحوال الكلمة والعامي والدخيل وغيره .. ثم عن (الصورة البيانية) حيث ذكروا المجاز المرسل (Sineddoche) والمجاز العقلي الإسنادي (Metonomia) والاستعارة (Metafora) والكناية (Antonomasia) إلخ .. ثم عن (أوضاع القول وصنوف الأساليب) حيث الحديث عن الفنون المختلفة من نثر وشعر.

وفي هذا – وما شاكله – تمثّل تخطيطهم العام للبلاغة إجمالاً في: (مقدمات) تدور حول دراسات علم النفس وغيره من حيث اتصال ذلك كله بالتعبير الأدبي، و(مبادئ) للتعريف بفن القول وأهدافه وغايته وصلته بغيره من الدراسات، و(بحوث) تسير في دراسة الكلمة والجملة وصور البيان وفنون القول ثم الأساليب، فإذا البلاغة عندهم بخاصة وبعامة، هي درس الأساليب أو هي علم الأساليب (Stilistica) (3).. يقول الخولي فيما يبدو فيه مدى تأثره – ووراءه كتيبة أساتذة كلية الآداب – بالثقافة الغربية في تناول الدرس البلاغي العربي ناهيك عن الكلمات التي ترجم لها في المتن وفي التعليق وكُتبت بغير العربية لمعالجة بلاغتنا العربية:

"تلكم دائرة البحث البلاغي عندهم، وأمهات مباحثها في ترتيبهم، نستطيع بالموازنة بينهما وبين ما عند قومنا أن نتبين نواحي الفرق .. وبعضها ربما لا نجد له أساساً في القديم، ولكنا قد نقوى على الأخذ به إذا ما قدرنا حاجة الحياة الأدبية"(4)، ويقول: "إذا ما ابتغينا هذه المعالم العامة لمنهج المحدثين الغربيين – دون تعرض للتاريخ ولا وصف للتحويل ولا توسع فيما يتصل بذلك – فإنا ننظر أولاً في المعاني الاجتماعية التي تؤثّر في مناهج دراسات العلوم اللغوية"(5) .. والتي فيها "يقصد المتعلم إلى غرض عملي مباشر غير نظري ولا عملي، فلا اعتماد على الكتب والشروح، ولا حاجة إلى القواعد والضوابط، ولا عناية بالشرح والتقسيم والتفريغ والتبيين، بل هي المعاطاة تكسب الملكة وتروض القوى، وتلك كلها هي مقومات ما سميناه المنهج الأدبي أو العملي في دراسة البلاغة .. فقد أذن ذلك كله بأن نجد المنهج الأدبي في درس بلاغتهم واضح المعالم متميز القسمات سليم الأساس لا يخشى أن تشوبه شوائب مغيرة .. وكذلك تلمح من ترتيب دراستهم لهذه الأسلوبيات أو لعناصر الأدب منها، ما يأتي:

الصلة الوثقى بين البلاغة والفنون .. تبيين العناصر الأدبية .. ربط هذا الدرس بالثروة الأدبية للغة المدروسة ربطاً لا ينتهي عند التزامهم إيراد الشاهد الفني الأدبي .. إقامة الدرس على أساس وجداني ذوقي .. إيقاظ قوة الملاحظة الفنية"(6)، ويشهد بمدي هذا التأثر أ. صلاح فضل في تقديمه

---

(1) فن القول ص ٩٨ بتصرف.

(2) ينظر السابق ص ٩٨: ١٠٦.

(3) ينظر فن القول ١٠٦ك ١٠٨ ومناهج التجديد ١٩٩: ٢٠٢والبلاغة العربية بين التقليد والتجديد ص ١٧٨.

(4) فن القول ص ١٠٨.

(5) فن القول ١٥٢، ١٥٣.

(6) ينظر فن القول ص ١٥٣: ١٥٦.

لكتاب الخولي (فن القول) إذ يقول ص ٩بصريح العبارة: "عندما شرع الأستاذ الخولي في عرض تصوره لموقف المحدثين وصورة البلاغة الأسلوبية عندهم، استقى مادته المباشرة من مؤلفين إيطاليين، أحدهما يسمى (لاباريني) في كتابه (الأسلوب الإيطالي)، والثاني هو (لويجي فالماجي) في كتابه عن (عناصر الأسلوب والعروض)"، وكان هو يطمع في المزيد وألا يقف الخولي "مكتفياً بحكم ظروفه بالشرارة الأساسية لهذه التوجهات" .. ثم إن الخولي يتحفظ على صنيع البلاغة القديمة حين قصرت (علم المعاني) على ما تفيده المعاني الثانوية، و(علم البيان) على مراتب تلك الإفادة، وأنهما بهذا وإن كانا من المركبات إلا أنهما يقابلان في الصورة المفردة: الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد والاحتراز عن التعقيد المعنوي[1] .. ولأجل هذا فهو يرى أن الصورة البلاغية في حديث القدماء "صورة وجه معروق بادي العظام شاحب، يسير الحظ من الحيوية والنضرة .. إذا ما سمعنا حديث غيرهم عن هذه البلاغة ودرسها وصورة ذلك عندهم، فاستمع لطرف من تصوير الغربيين للبلاغة"[2] .. ثم راح يبدي إعجابه بصنيع الغرب حين عمدوا في الصورة الإفرادية للموازنة بين قطعتين أدبيتين، وحين عمدوا في الصورة التركيبية إلى إظهار الجميل في فنون (التصوير) و(النحت) و(العمارة) فيما سمي بـ (الفنون التشكيلية)، وفي (الموسيقى) فيما سمي بـ (فن الصوت)، وفي (الأدب) فيما سمي بـ (فن الكلمة).

والسؤال: أليس هذا – الذي انعكس أثره على الدرس البلاغي لدى الحداثيين قاطبة ووجدنا صداه في كلياتهم، ومناهجهم التي كان أبناؤنا في التعليم العام بعض ضحاياه، على نحو ما وجدناه في إلغائهم التقسيمات البلاغية والمساس بأصولها ومبادئها تمهيداً لإلغاء علوم البلاغة واجتثاثها من جذورها بل وفي تسميتهم إياها بـ (فن القول) أو (الأسلوب)، ووجدناه كذلك في غياب الغاية والأثر الديني والاتجاه نحو تجاهل القرآن باعتبار نظمه وأسلوبه المؤثر في القلب تأثيراً لا يمكن إنكاره – أليس هذا يسير بالبلاغة في الاتجاه المعاكس والمخالف تماماً لكل بلاغة قديمة أو حديثة؟، وأليس هو خروج بها عن طابعها وبيئتها وغايتها وأصولها، بل وحتى مسماها؟.

وأجدني أقول الآن بكل ثقة واطمئنان: إن البلاغة العربية لا يمكن وما كان ليسوغ لها أن تُجدَّد أو تُعالج إلا بأبجدياتها، وذلك لشدة تعلقها بالفصحى التي "هي اللغة العالمية الوحيدة التي ظلت على مدى أربعة عشر قرناً مرتبطة بمفاهيمها الأساسية دون أن يطرأ عليها أي تغيير"، وبالقرآن الذي هو "غاية البلاغة ونهاية الفصاحة .. وأصل العلوم كلها"[3] .. كما أجدني أردد مع القائلين: إننا "لم نجد ذا رأي يقول: إننا نطور علومنا بعلوم غيرنا، ونجدد فكرنا بفكر غيرنا، ونبني معارفنا وأدبنا بعقول الغرباء عن لغتنا وأدبنا، لأن هذا عجز وإفساد وخلط وهجانة وتهجين" .. ذلك أن "علم البلاغة الذي لم يكثر التهجين في علم كما كثر فيه، له خصوصية تجعله عند من له بصيرة في العلم، أبعد علومنا عن أن يُغرس فيه كلام من خارج سياق العربية وعلومها وآدابها، هذه الخصوصية هي أنه من رأسه إلى قدمه مقتبس من استقراء كلام العرب وتتبع خواص تراكيبها، وأن كلام العرب (هو الجهة التي منها يطلب) كما قال علماؤه، والعربية .. هي عربيتنا نحن الذين يعيشون على الأرض وليست عربية الذين ماتوا، لأن من مات لا يمتلك، وقد كانت ملكاً لهم ثم صارت إرثاً لنا نحن"[4].

ولعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن منزع د. أمين إلى تجديد الدرس البلاغي وما ذكره بشأن إعادة تقسيمه ومن أن المقدمات والمبادئ والمقاصد تهدف في النهاية لدراسة الأسلوب، لا يبعد أن يكون

([1]) ينظر فن القول ص ٨٤: ٩٠.

([2]) السابق ص ٨٥ وكان مقدم كتابه د. صلاح فضل، قد وصفها قبل بأنها "تقليدية رابضة في جحورها القديمة تنعم بالموت السعيد"، وأنها آثرت أن تظل "وادعة في كهوفها آمنة في غياهبها".

([3]) الموسوعة لأنور الجندي ١/ ١٠، ١١.

([4]) الخصائص د. محمد أبو موسى مقدمة الطبعة السادسة ص: أ، ب.

– إضافة لما سبق وإن لم يصرح هو بذلك – صدى لما صدَّر العلوي ت ٧٤٩ به كتابه (الطراز)، فقد رجا الأخير في مقدمة كتابه أن يكون "متميزاً عن سائر الكتب المصنفة في هذا العلم بأمرين: أحدهما اختصاصه بالتركيب العجيب الذي يطلع الناظر من أول وهلة على مقاصد العلم .. وثانيهما اشتماله على التسهيل والتيسير"، يقول: "ولما كان كل علم لا ينفك عن مبادئ ومقدمات تكون فاتحة لأمره ومقاصد تكون خلاصة لسره وتكملات تكون نهاية لحاله، لا جرم اخترت في ترتيب هذا الكتاب أن يكون مرتباً على فنون ثلاثة، الأول منها مرسوم المقدمات، والثاني مرسوم المقاصد اللائقة، والثالث يكون جارياً مجرى التتمة والتكملة لهذه العلوم الثلاثة"[1] .. غير أن عذر الرجل أنه لم يقرأ لعبد القاهر[2]، وبالتالي لم يقف على فلسفته في تمييز علمي المعاني والبيان، وإلا لكان لشأنه شأن آخر .. كما أنه لم يخرج في مقدماته ومقاصده عن عموم الدرس البلاغي، فضلاً عن أنه يذكر أحياناً ما يدل على قناعته بما قنع بها متأخرو البلاغيين، وذلك قوله مثلاً: "فآل الأمر إلى أن (علم المعاني): هو العلم بأحوال الألفاظ العربية المطابقة لمقتضى الحال من الأمور الإنشائية والأمور الطلبية وغيرهما، وأن (علم البيان) حاصله: إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[3]، وهو في جملة ما ذكره لم يخرج على البلاغة المتأخرة ولا انقلب على أصحابها ولا على أسسها ولا على مبادئها ولا حاد عن غايتها ولا غيَّر في أصولها على نحو ما فعل سواه.

خامسها: أن الطريقة المثلى التي نادى بها الإمام محمد عبده وتقضي بالرجوع في تدريس علوم هذا الفن إلى منابع البلاغة الصافية الثرية عن طريق بعث التراث البلاغي القديم ودراسة البلاغة بروح الجاحظ ومنهج عبد القاهر والعسكري والعلوي وأضرابهم، فإنها وإن كانت تربي ملكة الذوق وتبعث لدى وفي نفس المتلقي روح التأثير، لكن يعوزها لم شعث ما تفرق في هذه الكتب من مسائل البلاغة ووجه ذلك، لأنها على حالها لا يمكن أن يتعاطاها أو يستوعب ما بها متواضع في علمه فضلاً عن أن يستوعبها طالب علم، ولا أظن أحداً يختلف معي في هذا لكونه الذي يقتضيه الواقع والعقل، والقائل بغيره لم يعرك هذه الكتب ولاسيما كتابي عبد القاهر الدلائل والأسرار.

ومن أجل ذا أرى أن الأمثل مما ارتآه الإمام، هو أن يُجمع للمرحلة الجامعية فما فوقها بين مقررات تجمع بين الأصالة والمعاصرة تسير على النهج التحليلي وأخرى كذلك تسير على النهج التقعيدي وليكن الامتحان في الأولى تحريرياً وفي الأخرى شفهياً، فيدرب المتلقي على المنهجين معاً .. إذ بالأولى تتربى لدية الملكة التي تعينه على تذوق النص الأدبي قديمه وحديثه، وتتكوَّنُ لديه القدرة على سبر البليغ من القول ويتسنى له الوقوف على أسراره وخصائصه التركيبية، فيتمكن عندئذ من تفهم النصوص وتمييز جيدها من رديئها بأحسن ما يكون التمكن .. وبالثانية تمثْل له القاعدة البلاغية بأكمل صورتها فتتشكل لديه القدرة على التنظير، ويتمكن حينئذ من إجرائها على أصولها ووفق أسسها وما وضعت لها، بأحسن ما يكون التمكن ..بذا نكون قد جمعنا للمتلقي بين الخيْرَين (التأصيل والتطبيق)، وفوَّتنا الفرصة – في الوقت ذاته –على من يتهمون (البلاغة القديمة) التي يدين لها الأزهر بالوفاء والولاء، بالعقم أو أنها تُعنى بالتقعيد والتقنين ولا تربي ملكة ولا ذوقاً.

******

([1]) الطراز ١/ ٦، ٧ باختصار.

([2]) يقول في ذلك بعد أن مدح كتابيه الدلائل والأسرار: "ولم أقف على شيء منهما مع شغفي بحبهما وشدة إعجابي بهما، إلا ما نقلة العلماء في تعاليقهم منهما" الطراز ١/ ٤.

([3]) الطراز ١/ ١١.

المبحث الثاني
التجديد في علم المعاني في ضوء الأسلوبية الحديثة

أولاً: مدخل لاختيار الحديث عن (علم المعاني) ليكون مجالاً للحكم على تجربة الأسلوبية الحديثة

دعا لاختيار (علم المعاني) لأن يكون ميدانا لهذا البحث في الأساس، قيام التجديد لدى الحداثيين على أصوله[1]، وما تميز به هذا العلم من إفاضة في خصوصيات تعد في مجال الدرس البلاغي – وهو في حقيقة الأمر كذلك – عامة، تشمل علمي البيان والبديع تماماً على نحو ما تشمل علم المعاني.

فما تضمنه علم المعاني من حديث في مقدمته عن بلاغة القول وضوابطه وكيفية تحقيقه والوصول إلى ما به تحصل المزية في الكلام، وأنها ليست إلا (مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته) .. ومن حديث عن أجزاء الجملة وما يعتريها من أحوال تضم فيما تضم: الذكر والحذف والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير، إلى غير ذلك .. وحديث عن الذوق وربط الأثر الأدبي بالحياة الآنية، وعن مراعاة الحالة النفسية لكل من المتكلم والمخاطب، والحكم من خلال ذلك على الكلام بالقبول والأريحية .. والوقوف على ما به يتميز جيد القول من رديئه .. وغير هذا مما يشبهه، هو من صميم الكلام عن البلاغة في عمومها، هذا ***أولاً***.

أما ***ثانياً***: فهو أن يتسنى لنا – والحال كذلك – رد عادية دعاة الأسلوبية الذين تباروا ليجعلوا من هذه الأشياء السالفة الذكر ذريعة قوية للحرب على البلاغة العربية الأصيلة، ومادة ثرية للمطالبة بالتجديد الذي يرومونه ويدور برؤوسهم، وموضوعاً جديراً بالاهتمام المبالغ فيه، وأصولاً تستأهل أن تُغيَّر معالم البلاغة لأجلها بل وأن تُستأصل شأفة الدراسات البلاغية القديمة من جذورها، على نحو ما فعل د. (أمين الخولي) حين ذكر أن "تقسيم البلاغة إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع لا طائل تحته ولا جدوى منه"[2]، وهو يرى أن الطائل والمجدي "أن نعمد رأساً إلى تحقيق الغرض البعيد من البلاغة العربية تجديداً يمس الأصول والأسس فيغيرها وينفي فيها ويثبت، ونخالف مقررات كبرى ونضيف إضافات جديدة"[3]، بأن "نضم إلى البلاغة مقدمة فنية، نعرِّف الدارس فيها بمعنى الفن وطبيعته ونشأته وغايته وأقسامه، متحرين في ذلك بيان الفن القولي .. وأخرى نفسية نعرِّف الدارس من خلالها بالقوى الإنسانية ذات الأثر في حياته الأدبية وبالوجدان والذوق والخيال، ونزيد فهمه للاعتبارات التي أجملها القدماء تحت كلمة (مقتضى الحال)"[4].

والذي نود التنبه له هنا، هو التأكيد على أن ما سبق ذكره من أمور تتعلق بمعايير الحكم على الكلام بالحسن والقبول مما يعتري تراكيب الجمل ومكوناتها من أحوال يجب فيها مراعاة

---

(1) إذ الاعتبار القيم فيما يتعلق بـ (علم البيان) ليس لدى أهل الحداثة متمثلاً فيما قاله القدامى في وجه حصر مباحثه المندرجة تحته، وإنما في "إدراك ما للصور البيانية من قوة الإيضاح والتأثير"، ومرد ذلك – على حد قولهم – "معرفة المنطق اللغوي والأدبي والبصر بالمؤثرات في النفس الإنسانية"[فن القول ص٢٣٧]، فهذا بضميمة ما يشبهه مما يعد من صور التعبير البديعية قوياً، ومعهما مباحث (علم المعاني) القاصرة في عمل القدامى – برأيهم – على تقسيم الجمل إلى إنشاء وخبر وعلى بحث المعاني الجزئية في أحوال أجزاء الجملة وأجزائها أو الجملتين [السابق ص ٢٣٨، ٢٣٧] .. تتسع دائرة البحث أمامه "الكل ما تشمله طبيعة الفن القولي وعمل الأديب فيه" حتى "تبحث فنون الأدب نظماً ونثراً فناً فناً .. وتدخل فيها دراسات مظاهر النشاط الفني وأسباب وضوح القول وتأثيره"[السابق ص٢٣٥].

(2) البلاغة العربية بين التقليد والتجديد د. خفاجي ص ١٧٧وينظر مناهج التجديد ٢٠١.

(3) مناهج التجديد ص ٢٠٠وينظر ص ١٩٩ وفن القول ص ٦٤، ٦٧.

(4) منهج التجديد ص ٢٠١، ٢٠٢.

المقتضى والخصائص التركيبية وتذوق العبارة وإحداث الأثر النفسي من خلالها .. إنما يدخل في كل جملة اشتمل عليها نص أدبي أو عمل فني، سواء اشتملت هذه الجملة أو ذاك النص أو العمل على ضرب من ضروب البيان أو لون من ألوان البديع أو لم يشتملا، فهي إذاً أعم من أن تكون قاصرة على مسائل علم المعاني، لكونها أموراً متغلغلة فيما تعلق من نصوص أو جمل بمباحث علم المعاني على نحو ما هي متغلغلة كذلك في سائر فنون هذا العلم الجليل.

وإلا فكيف تسنى لشيخ البلاغة الإمام عبد القاهر أن يتحدث – على حد قول د. شوقي ضيف وبشهادته – عن "الأثر النفسي للاستعارة وأنها تحدث في السامع مُتعة وتجلب له أنساً ثم يأخذ في بيان أقسامها، فيقول إنها إما أن تجري في الأسماء وإما أن تجري في الأفعال، وسمى البلاغيون بعده هذين القسمين على الترتيب باسم الاستعارة الأصلية والتبعية، ويقسم التي تجري في الأسماء قسمين، فهي إما محققة وإما مرموزاً إليها، أو كما يقول البلاغيون بعده إما تصريحية وإما مكنية، والأولى هي التي يُنتقل فيها الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر، وكأنك تدل به على صفة لموصوف مثل: (كلمت أسداً) وأنت تعني رجلاً شجاعاً، والثانية لا يُنتقل فيها اسم عن مسماه الأصلي، وإنما تثبت لشيء لازمة لشيء آخر كقولك: (يد الريح تضرب الشجر ضرباً عنيفاً)، فإنك لا تستطيع أن تزعم أن هنا نقلاً، إذ ليس المعنى على أنك شبهت شيئاً باليد بل المعنى على أنك أردت أن تثبت للريح يداً، فالمشبه به لا يلقاك مباشرة وإنما يلقاك بما أضيف منه إلى المشبه، وفرق ثان هو أن وجه الشبه في القسم الأول موجود في المشبه، أما في القسم الثاني فلا يوجد وجه شبه، إنما هو وصف تكسبه المشبه وتعطيه له، إذ تجعل كما في المثال السابق للريح يداً وقوة وتصرفاً، وهي ملحوظة دقيقة، فإن الاستعارة المكنية لا تقوم على التشبيه وإنما تقوم على بثِّ الحياة والحركة في المشبه لغرض المبالغة"[1]؟؟.

وكيف تأتى له أن يستهل كتابه (أسرار البلاغة) – وهو الذي جل الكلام فيه عن مسائل في علم البيان – "بالحديث عن الجناس والسجع محاولاً أن يثبت أن الجمال فيهما لا يرجع إلى جرس الحروف وظاهر الوضع اللغوي، وإنما يرجع إلى مسائل معنوية من شأنها أن ترضي العقل، وبمقدار هذا الرضا يكون جمال الجناس"[2].. ثم يتبع ذلك بالحديث عن التخييل ويقول إنه الذي "يُثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويُريها ما لا ترى"، وأنه لدقته وتنوعه "مفتنَّ المذاهب كثير المسالك، لا يكاد يُحصر إلا تقريباً ولا يُحاط به تقسيماً وتبويباً، ثم إنه يجئ طبقات ويأتي على درجات، فمنه ما يجئ مصنوعاً قد تُلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحِذق حتى أعطى شبهاً من الحق وغُشي رونقاً من الصدق، باحتجاجٍ تُمُحِّلَ وقياسٍ تُصنُّع فيه وتُعمِّل، ومثاله قول أبي تمام:

لا تنكري عَطَلَ الكريم من الغنى * فالسيل حرب للمكان العالي

فهذا قد خَيّل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفاً بالعلو والرفعة في قدره، وكان الغِنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن يزلَّ عن الكريم زليل السيل عن الطود العظيم، ومعلوم أنه قياسُ تخييل وإيهام لا تحصيل وإحكام، فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية أن الماء سيال لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والماء شيء من هذه الخلال"[3].

إلى غير ذلك من روائع ما كتبه عبد القاهر ومما هو أعلق بعلمي (البيان) و(البديع)، والحديث فيه يمت بصلة لمباحث علم (المعاني)، نظراً لاتصاله فيهما بمراعاة المقتضى، وعُروضه لنظم الكلام

([1]) ينظر البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ص ١٩٤، وينظر أسرار البلاغة ٤٧، ٥٣ وما بعدهما.
([2]) البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ص ١٩١ وينظر أسرار البلاغة ص ٧: ١٩.
([3]) أسرار البلاغة ص ٢٧٥، ٢٦٧.

وملائمة الألفاظ لمعانيها، وإفاضته في أحوال الجملة وأجزائها من تقديم وتأخير وحذف وذكر إلى آخر ذلك .. مما لا يعني سوى تلاحم الصلة بين علم المعاني وعلمي البلاغة الآخرَين، ويدل كذلك على ربط البلاغة المتقدمة عامة بالخيال وبعلوم النفس والأخلاق والجمال التي يستعان بها في تأدية رسالتها ويمكنها من بلوغ هدفها وهو الشعور بالأريحية وكسر عزلة البلاغة ووصلها بالحياة، ويدل كذلك على أن الصورة الأدبية لا يُجتنى ثمارها في واقع الحال ولا يُعرف وقعها في الكلام ولا أثرها في النفس إلا بتذوقها والوقوف على محاسنها والإحساس بروعتها وجمالها .. وهو – عينه – ما ينادي به أنصار الاتجاه النفسي وغيره من المجددين.

ثانياً: تجديد علم المعاني في ضوء صياغته التقليدية.. ملامحه.. ما له وما عليه

حين عرض البلاغيون لعلم المعاني اصطلحوا واستقر أمر متأخريهم على أنه: "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال"[1]، وأن الوجه في حصر مباحثه فيما انحصرت فيه، أن البناء التركيبي إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه أو لا يكون، الأول الخبر والثاني الإنشاء وله أساليبه، ثم الخبر لا بد له من إسناد والإسناد لابد له من مسند إليه ومسند، ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلاً أو في معناه وكل ذلك له أحوال تعرض له وتختص به، ثم إن الإسناد والتعلق كل واحد منهما إما أن يكون بقصر أو بغير قصر، والجملة إذا قرنت بأخرى إما أن تكون الثانية معطوفة على الأولى أو غير معطوفة، ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة أو غير زائد عليه.

بذا طفقوا يفيضون في الحديث عن أحوال الإسناد الخبري ومكوناته من مسند إليه ومسند ومتعلقات، ثم عن القصر وطرقه والإنشاء وأساليبه، ثم عن الوصل والفصل بين الجملتين ومواضعـــه، فالإيجاز والمساواة والإطناب .. ويضمها جميعاً ما عـرف بـ (علم المعاني).

ويعد شيخ البلاغة عبد القاهر أول من فتّق أزاهير هذه المسائل وفجّر ينابيعها وجعل منها حبات منتظمة ومتلألئة يُتعرف في ضوئها ومن خلالها على بعض أسرار ودلائل الإعجاز في القرآن الكريم، ومن هنا عُدَّ أول مجدد لعلم المعاني وأول واضع لأسسه ونظريته .. بيد أن من يرجع إلى مطالع كلامه في الدلائل يجده يسمي مباحثه فيه مباحث بيانية، إذ يقول:

"إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً وأبسق فرعاً وأحلى جنى وأعذب ورداً وأكرم نِتاجاً وأنور سراجاً من علم البيان"[2]، الأمر الذي يتأكد معه أن علوم البلاغة – التي لم تكن قد عُرفت بعد أو قُسِّمت – كانت عنده علماً واحداً .. وآية ذلك أنه عرض في (الدلائل) للمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه، كما أنه أطلق على (الاستعارة) اسم (البديع) وذلك في كتابه (أسرار البلاغة) الذي استهله بالحديث عن الجناس والسجع محاولاً أن يثبت أن الجمال فيهما يرجع إلى جوانب معنوية من شأنها أن ترضي العقل، وأوضح فيه أن (الصورة البيانية) جزء من (النظم) لأنها تدخل في الأساليب والتراكيب .. وإن كان ذلك لا يمنع من القول بأنه خصَّ (الأسرار) بمزيد من الكلام عن مسائل علم البيان حيث أصَّل لنظريته وأقسامه وفروعه وشواهده، كما خص (الدلائل) بما صح درجه من المباحث والمسائل تحت مسمي علم المعاني، وأن حديثه في الأخير عن مسائل البيان كان واقعاً في ثنايا تفسيره لـ (نظرية النظم) التي أدار عليها الكتاب واستخرج منها شعب علم المعاني.

فالنظم إذاً لدى عبد القاهر – سواء في حديثه عن مسائل المعاني أو البيان – هو شغله الشاغل وهو لديه المحور الأساسي وحجر الزاوية للبلاغة، وإليه ترجع الفصاحة، ويُردُّ حسن الصياغة وجودة

---

[1] الإيضاح مع البغية ١/ ٢٧.
[2] الدلائل ص ٥.

السبك، ومواقع الكلمة وخصائص التراكيب، وجمال الألفاظ ومعانيها، وتوخي معاني النحو بين معاني الكلم .. يقول: "ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات – (البلاغة) و(الفصاحة) و(البيان) و(البراعة) – وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، ويُنسب فيه الفضل والمزية دون المعنى، غيرُ وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما كانت له دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوي النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تُطلق لسان الحامد، وتُطيل رَغْم الحاسد .. ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غيرُ أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يُكسبه نبلاً ويُظهر له مزية"[1]، والكلام في ذلك أكثر من أن يحصى ويكفي لذلك أن نشير – على سبيل المثال – إلى ما ذكره في صفحات ٥٥، ٨١، ٣٦٢، ٤٠٥، ٤١٠، ٥٢٥ وما تلتها من الدلائل بتحقيق شاكر.

وإنما تعمدت أن أضيف إلى أولية عبد القاهر في وضع أسس وأصول البلاغة – بنظريتيه في (النظم) و(البيان) – أوليته كذلك في تجديدها، لاستظهار أنه على نحو ما كان لعبد القاهر قصب السبق في وضع أصول هذا العلم كان له كذلك قصب السبق في تجديده، إذ يوحي مسمى كتابه (دلائل الإعجاز) الذي خصصه لنظرية النظم "بالغاية التي يهدف إليها من تلك النظرية، وهي إثبات أن الإعجاز في كتاب الله الخالد هو إعجاز نظم".
"والواقع أن النظر إلى (النظم) في ضوء تلك الغاية أمر لم ينفرد به عبد القاهر، بل لم يكن هو الرائد إليه فهو مسبوق في ذلك بكثير من الذين شغلوا بتلك القضية الشهيرة قبله"[2]، والجديد عند عبد القاهر – وإن كان قد تأثر فيه بعض الشيء بالقاضي عبد الجبار المعتزلي والباقلاني الأشعري – أن مردَّ النظم المعجز عنده إلى: (توخي معاني النحو بين معاني الكلم) وتطبيق ذلك بطريقة منهجية تحليلية على الأمور العارضة للإسناد وأجزائه، وللفروق التي تقع في جمل الخبر والصلة والحال والمعطوف بعضها على بعض وغير المعطوف، وتطبيقه كذلك على المجاز بنوعيه العقلي واللغوي، وعلى الجمل المؤكدة بـ (إن) والتي شابها قصر والتي جاءت على إحدى صور البيان، كذا بنفس الترتيب الوارد في الدلائل .. وما (مطابقة مقتضى الحال) إلا المعيار الفني أو الجانب الوصفي أو المهاد النظري – على حد قول أ.د. حسن طبل[3] الأستاذ بدار علوم القاهرة والمشهور بعلمه ودماثة خلقه – لهذا التأصيل العلمي لمباحث المعاني.
فليس مرد إعجاز القرآن إذاً الصرفة كما زعم النظَّام ولا لمجرد الإخبار بالغيب كما قال غيره .. ولا تلك الأشياء التي حصر الرماني ت ٣٨٦ البلاغة فيها، وهي: الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان .. ولا أنه "جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني" أي: اتباع أساليب الكلام الجيد التي منها البليغ الرصين والفصيح السهل والجائز الطلَّق والتي بها يتم تنزيل المعاني عليها وصبها في القوالب اللفظية الدقيقة على ما أفاده الخطابي ت ٣٨٨هـ[4] .. ولا إلى ما يطوى في الفصاحة من الصور البيانية والبديعية، كما يرى ابن سنان الخفاجي ت ٤٦٦ متأثراً في ذلك بأبي هاشم الجبائي وغيره من المعتزلة الذين كانوا يرونه في حسن الألفاظ لظنهم أن أوصاف اللفظ أوصاف له في نفسه[5].

([1]) الدلائل ص ٤٣.
([2]) علم المعاني في الموروث البلاغي د. حسن طبل ص ٢١.
([3]) ينظر السابق ص ٢١.
([4]) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٨ وينظر البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ص ١٠٣.
([5]) ينظر البلاغة تطور وتاريخ د. ضيف ص ١٥٢، ١٦١.

وقد التقط هذا الخيط الرفيع أبو يعقوب السكاكي الذي راح يعرف علم المعاني بأكمله، بأنه: "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[1] .. غير أن الخطيب القزويني تعقبه فيه لعدم موائمته مع حدود التعريفات – كما هو الشأن في سائر الصناعات – ولأنه فسر التراكيب بتراكيب البلغاء مع أن معرفة البليغ متوقفة على معرفة البلاغة[2] .. وإن وافقه – مع فارق كبير في تهذيب العبارة – في تفسير مراد عبد القاهر بالنظم، وإرجاعه مزية الكلام لديه إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب ومراعاة الاعتبارات المناسبة والزائدة على أصل المعنى الغفل المراد فيه، أعني أرجعها إلى المعاني الثانوية أو الخصوصيات التي تقتضيها الأحوال ويتعلق بها أغراض وسياقات الكلام.

ونص الخطيب في كتابه (الإيضاح) على كل ذلك الجديد صراحة، وذكر أن "هذا هو مراد الشيخ عبد القاهر بما يكرره في دلائل الإعجاز – من أن الفصاحة صفة راجعة إلى المعنى دون اللفظ .. وإنما قلنا مراده ذلك لأنه صرح من (دلائل الإعجاز) بأن فضيلة الكلام للفظ لا لمعناه .. فالجمع بينهما بما قدمناه .. فحيث نفى أنها من صفات اللفظ أراد أنها من صفات المفردات من غير اعتبار التركيب وحيث أثبت أنها من صفاته أردا أنها كذلك باعتبار إفادته المعنى عند التركيب" انتهى باختصار من كلام الخطيب[3] .. وذا منه – على أي حال – يعد إبداعاً وطوراً جديداً في فهم بلاغة النص وفهم ما أراده عبد القاهر من نظرية النظم.

ويجرنا معرفة حقيقة ما جرى باختصار من معارك كلامية حول قضية (النظم)، وقضية (اللفظ والمعنى) اللتين هما أساس البلاغة وعمودها وإليهما مرد المزية والتفاضل في الكلام .. إلى أن ما أحدثه السكاكي من جنوح إلى مَنْطَقة البلاغة وما ابتدعه من إفساد في تذوقها وما أضافه إليها من جديد، كان – والحق يقال – خروجاً عما كان ينبغي أن يكون عليه الدرس البلاغي.

لقد وصل الأمر بالسكاكي وهو يتحدث – إبان سرده لما به تنضبط معاقد علم المعاني – عن تفاوت مقتضى الحال لدى المتكلم، وأنه تارة يقتضي مجرد ذكر الدلالات الوضعية للألفاظ وتارة يفتقر في تأديته إلى أزيد من هذا، وأن مثار الخطأ في مراعاة المقتضى يكمن في الثاني .. لأن يقول: "وإنما مثار الخطأ هو الثاني .. وإن اختلج في وهمك أن الاحتراز عن الخطأ في الثاني إن لم يتوقف على علم المعاني استُغنى عنه وإن توقف عليه، ولا شبهة في أن الكلام فيه كلام من القبيل الثاني فيتوقف تعريفه على تعريف له سابق ويتسلسل أو يدور، فاستوضح ما أجبنا به عن تعلم علم الاستدلال وعلم العروض، إذ قيل إن كان العقل أو الطبع يكفي في البابين فليستغن عن تعليمهما وإلا كان تعليمهما موقوفاً على تعليم سابق، والمآل إما الدور أو التسلسل، وسننظم لك هذين العِلمين في سلك التعرض لهما"[4] .. ومن الطبعي حيال ذلك أن تهوي البلاغة على يد السكاكي إلى مكان سحيق وأن يهوي معها هدفها في إنماء ملكة التذوق لدى معلمها ومتلقيها، ومن الطبعي كذلك أن يقرر هو نفسه – فيما يشبه الاعتراف بالذنب – أن "ليس من الواجب في صناعة – وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل – أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكمات وضعية واعتبارات إلفية، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبه في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك، إلى

([1]) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٩١.

([2]) وقد أيد السعد التفتازاني في المطول ما ذهب إليه السكاكي معرباً عن شدة تعجبه لما أبداه الخطيب من اعتراضات .. وينظر تفاصيل ذلك في المطول ص ٣٥، ٣٦.

([3]) البغية مع الإيضاح ١/ ٢٢، ٢٣ وينظر من نصوص عبد القاهر الدلائل ص ٢٥٩، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٤ ت/ شاكر كما ينظر مفتاح العلوم ٩٢، ٩٥ وما بعدهما.

([4]) المفتاح للسكاكي ص ٩٢.

أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق"، هكذا يكون الأمر من بدايته لدى هذا السكاكي وهكذا برر لنفسه ما آل إليه مصيره ومصير منهجه الذي أصبح سبة في جبين هذا الفن الرفيع.
فانظر – يا رعاك الله – إلى أي مدى وصل الأمر ببلاغتنا الراقية، لولا أن قيض الله لهذا العلم الجليل من يخفف من غلواء المنطقة والفلسفة التي طغت على الدرس البلاغي من نحو الخطيب وأمثاله.
واعلم أن إفساد البلاغة العربية بما استحدثه دعاة التغريب وأتباعهم من مؤامرة على الفصحى ومفرداتها ومصطلحاتها وقرآنها وبلاغتها، لهو أعظم فتكاً وأشد إفساداً وأكبر إضراراً مما استحدثه السكاكي .. فهل لنا أن نعتبر ونتعظ ، وهل هل من سبيل في الخروج من هذا المأزق وللسعي قدماً لتجديد بلاغة عبد القاهر المشوقة بنظير لها ينطلق بنا إلى عالم الإمتاع والإحساس بالجمال وبالتذوق الناقد لروائع الأداء الفني المترجم – على حد قول بعضهم – عن الشعور بالحسن، شريطة أن يحفظ عليها غايتها ولا يمس أسسها وأصولها؟؟!!.

ثالثاً: ملامح تجديد علم المعاني في ضوء الأسلوبية الحديثة

في اقتراح بتجديد منهج البحث الدراسي في ضوء الواقع المعاصر[1] وضع الدكتور أمين الخولي الأستاذ بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول وقتذاك، ورقة عمل ترمي لتحقيق غرضين يهدفان إلى تجديد علوم الآداب أو علوم العربية التي منها بالطبع الدرس البلاغي.
أحدهما: قريب ويتمثل في "تسهيل دراسة المواد الأدبية واقتصاد ما يبذل فيها من وقت وجهد، مع تحقيق المطلوب من دراستها تحقيقاً عملياً، بحيث يُمَكِّن كلُّ دارس لها أن يظفر في وقت مناسب وبجهد محتمل بما يستطيع معه استعمال اللغة في حياته، ذلك الاستعمال الذي تُطلب من أجله اللغات".
وآخر بعيد يتمثل في "أن تكون هذه الدراسات الأدبية مادة من مواد النهوض الاجتماعي تتصل بمشاعر الأمة، وترضي كرامتها الشخصية وتساير حاجاتها الفنية المتجددة، فتكون اللغة في مصر مثلاً لغة الحياة في ألوانها المختلفة، وأداة التفاهم المرضية في البيت والمعمل والجامعة والمسرح والسوق والنادي وما إلى ذلك، فلا يعيش الناس بلغة ويتعلمون لغة أخرى، ولا يفكر الناس بلغة ويدونون أفكارهم بغيرها، ولا يتعاملون بلغة ويشعرون وينثرون ويمثلون بغيرها، ولا تكون اللغة سبباً في فرض نظام من الطبقات على الأمة بحيث يتسع البعد بين خاصة الأمة وعامتهم في اللغة المتفاهم بها"[2]أ، هـ.
وكلام د. أمين الخولي هذا – الذي أورده في كتابه (مناهج تجديد النحو والبلاغة والتفسير والأدب) ويريد تعميمه في كل ما ذكر – فيه نظر، ويعكر عليه أن شأن أية لغة في العالم لا يخلو مما ذكر بحق الفصحى سواء في مصر أو سواها من سائر الأقطار العربية، قلَّ هذا التفاوت – بين الرسمي في اللغة الواحدة منها وغير الرسمي – أو عظم، كما أن ما صرح به في عبارته الأخيرة لا وجود له في واقع العربية البتة، فقد مرت عليها – دون سواها من لغات العالم قديمه وحديثه – هذه القرون المتطاولة ولم نجد له أي صدى أو أثر، ومن ثم فهو ليس بالدافع التي يستحق لأجله هذه الضجة التي افتعلها وأوجب بسببها تغيير أسس وأصول هذه المعارف التي تقوم في الأصل والأساس على خدمة القرآن ولغته وخدمة الإسلام وقضاياه.

([1]) أعقبه تنفيذ على الفور وبحماس منقطع النظير على كافة المستويات، الإعلامي منها وقد تمثل في طبع ما تجود به القرائح في الهيئة المصرية العامة للكتاب وخلافها، والتعليمي وهو متمثل في تقرير مناهج مناهضة للمناهج التقليدية القابلة في ذاتها للتطور والتحديث، وذلك بجميع مراحل التعليم العام وكثير من كلياته حتى عمت به البلوى.
([2]) مناهج تجديد لأمين الخولي ص ١٩٩.

ومما تجدر الإشارة إليه أن د. (أمين الخولي) قد وضع لتحقيق غرضه البعيد – الذي أفصح فيما مر بنا منذ قليل عن وجهه الحسن – خطة بعيدة المدى وورقة عمل عكف وكتيبة من إخوانه على إعدادها، وتحوي سبعة بنود أوضح أنها تمثل معالم التجديد البلاغي في إجمال، وتتلخص هذه البنود – بكل أمانة – في المطالبة بوصل البلاغة بالحياة الأدبية وجعلها دراسة ذات جدوى .. وتخليصها من الفلسفة المستعجمة .. وعدم قصرها على فصاحة المفردة أو الجملة، بأن يمتد أفقها لتشمل كذلك الفقرة والعمل الفني الكامل[1] .. وعدم قصرها على الألفاظ أو المعاني وعلاقة كل بالآخر بأن يتسع مداها ليعم المعاني الأدبية والأغراض الفنية التي هي – على حد قوله – روح الفن القولي ومظهر عظمة الأديب .. وأن نصنع تقسيماً جديداً لعلوم البلاغة بعد أن "صار التقسيم القديم للبلاغة إلى المعاني والبيان والبديع لا أساس له ولا غناء فيه"، وذلك بأن نقتصر على كلمة (البلاغة) وصفاً لجمال الكلمة والكلام ونوفر كلمة (الفصاحة) ونقسم الدرس إلى بلاغة الألفاظ فنبحث عن جرس الألفاظ ثم عن دواليها على المعاني في المفرد والجملة والفقرة والقطعة، وبلاغة المعاني فنقسمها بما يناسبها حتى ننتهي إلى دراسة فنون القول الأدبي الحديث المنثور منه والمنظوم فناً فناً، وما به قوام كل فن، وأن نضم إلى البلاغة مقدمات تقوم على الإحساس بالجمال وتتصل بالحياة وتحدث عن خلجات النفس وتسعد آمال الجماعة وأمانيها .. فنضم إليها مقدمة فنية تعرِّف الدارس معنى الفن وطبيعته ونشأته وغايته وأقسامه .. وأخرى نفسية تعرّفه بالقوى الإنسانية ذات الأثر وبالوجدان والذوق والخيال[2] ..

وهو – كما ترى – كلام (يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً)، وسنرى في الصفحات التالية – ومعنا كل من كان له أدنى مسكة من عقل أو مثقال ذرة من إيمان – كيف تم له ذلك، وكيف كان تمامه – ليس على حساب بلاغتنا وفقط – وإنما أيضاً على حساب عقيدتنا وديننا وعروبتنا.

ويعترف الخولي أن "هذا الغرض – البعيد هذا، بأبعاده تلك – لا يتحقق إلا بتغيير قد يمس – أو لابد أن يمس، كذا يقول – الأصول والأسس البعيدة، ويُدخر له العزم والجهد حتى تصير اللغة ناحية من كيان الأمة وجانباً من وجودها العملي، ولا تفترق اللغة في حال عنها في أخرى إلا بقدر ما تتطلب الأناقة الفنية والعمل الأدبي"[3]، كذا بما ينم عن وقوع معركة حامية الوطيس بينه ومعه أعوانه من الحداثيين ودعاة التغريب، وبين كل ما هو قديم وكل من هو محافظ على موروث الأمة البلاغي.

وعلى الرغم من فداحة ما يسعى له الخولي هنا من انقلاب على أوضاع البلاغة التي وصلت بها إلينا، ظهر في قوله السالف الذكر .. وعلى الرغم من مناقضة ما أفصح عنه هنا من سعي لاستئصال شأفة البلاغة العربية، لما يزعم أنه تغيير "يمكن أن يستجيب له التراث القديم"[4] .. على الرغم من كل هذا، ندع د. الخولي يواصل إبـداء ما يمثل الجانب الإيجابي من أطروحته، وما يمكن أن يستجيب له – بالفعل وعلى حد قوله – التراث القديم من هـذا التغيير، لنثني بعد بذكر السلبيات.

([1]) وعدم قصرها كذلك على بلاغة الكلام والمتكلم .. ويرى كذلك فيما يتعلق بمباحث علم المعاني التي عدها من القصور بمكان، أن باب الفصل والوصل لا ينبغي أن يكون قاصراً على عطف بعض الجمل بل يعم الدرس البلاغي جميعها ومعها المفردات، وأنه بالأمور النفسية فقط – حتى في حق القرآن – يعلل الإيجاز والإطناب والتوكيد والإشارة .. إلخ .. ينظر المناهج ص ١٢٥، ١٥٤، ٢٥٤ وينظر فن القول ٩٣، ٢٢٦، ٢٣٤ وما بعدها.

([2]) ينظر مناهج التجديد. لأمين الخولي ص٢٠٠: ٢٠٢ وفن القول ٦٣ وما بعدها.

([3]) مناهج التجديد ص ١٩٩وينظر ص ٢٠٠وفن القول ص ٦٤، ٦٧.

([4]) مناهج التجديد ص ٢٠٠.

أ- ما يحويه تجديد علم المعاني في ضوء الأسلوبية الحديثة مما يمكن عده من الإيجابيات:

ولنبدأ مشوارنا مع ما طالب به في تخليص البلاغة من الفلسفة المستعجمة .. ونقول بادئ ذي بدء إن هذا حق، وأنا – وغيري – معه، نراه محقاً وهو يطالبنا بأن "نهمل بتاتاً الدراسة الفلسفية المستعجمة"[١]، فلقد استحكمت عند السكاكي العجمي والتحكمات الوضعية والاعتبارات الإلفية في ميدان البحث البلاغي، ووصلت به إلى درجة أنسته حتى نصيحة شيخه التي يقول السكاكي في شأنها: "وكان شيخنا الحاتمي – ذلك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار ما دار الفلك الدوار تغمده الله برضوانه – يحيلنا – بحسن كثير من مستحسنات الكلام، إذا راجعناه فيها، يعني التحكمات والاعتبارات السالفة الذكر – إلى الذوق، ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب وصبغ بها يده وعانى فيها وكده وكده، وهاهو الإمام عبد القاهر – قدس الله روحه – في دلائل الإعجاز كم يعيد هذا"[٢].

ومن هنا ندرك أن الاستنكار على صنيع السكاكي في خلط ومزج ومعالجة مسائل البلاغة من خلال ما كتبه في الجزء الثالث من المفتاح بالفلسفة، يوشك أن يكون محل إجماع .. ولظهور هذا وبيان مدى ما أحدثته الفلسفة بالبلاغة من فساد الذوق ومن أثر في ميدان الدراسات البلاغية عموماً فإن الأمر لا يحتاج إلى تلك المزايدة التي دفعت أمين الخولي دفعاً لأن يغير معالم البلاغة بما يمس أصولها ومبادئها وتقسيماتها وكلها .. ثم كيف يتسنى له أن يستنكر (الدراسة الفلسفية المستعجمة)، وهو نفسه يكتب في علاقة الفلسفة بالبلاغة ما يربو عن الخمس والعشرين صفحة في الجزء الخاص بتجديد البلاغة في كتابه (مناهج التجديد)، وفيها يبدئ ويعيد ويقول – فيما يقول – تحت عنوان (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها):

"وإذا كان للموضوع بالفلسفة صلة، فإني انتصح بنصيحة شيخ الفلاسفة (سقراط) التي كان يوجهها دائماً لطلبته مهيباً بهم أن (حددوا الألفاظ التي تستعملونها)، وكذلك أفعل فأقول: أما الفلسفة فليست إلا البحث الحر العميق .. وكان المنطق والجمال والنفس والأخلاق وغيرها، من الفروع .. وأما البلاغة فما هي بإيجاز، إلا درس فن القول والبحث عن الجمال فيه .. تلك هي الفلسفة والبلاغة بتحديد قصير، وفيه نتبين صلتهما المتينة والعلاقة الثابتة بين حقيقتيهما، إذ كان الجمال كما نرى موضع عناية لهما كليهما"[٣].

فقل لي بربك كيف يستقيم هذا مع ما يطالبنا به منذ قليل بأن "نهمل بتاتاً الدراسة الفلسفية المستعجمة"؟ .. أم تراه يستبيح لنفسه ما يحرمه على الغير؟ .. أم تظنه يرى أن فلسفة السكاكي لديه مستعجمة، وفلسفة سقراط ليست كذلك؟ .. أم أن الأخيرة فيها من الجمال ما ليس في فلسفة السكاكي؟ لا ندري بالضبط !!.

لقد ذكر الخولي في الصفحة التالية مباشرة على سبيل التعميم أن "البلاغة في جميع أدوارها قد عاشت في كنف رجال الفلسفة وتحت رعايتهم، وجمهرة الأقلام التي خدمتها أقلام فلاسفة أو متفلسفين، ولم يكد ذلك يتخلف في عصر ما"[٤]، ناسياً عن قصد أو غير قصد دور الشيخ عبد القاهر، ومتناسياً ما ذكره هو قبل ذلك بصفحات معدودة في نفس الكتاب من "أن البحث البلاغي قد اتجه اتجاهين مختلفين أحس بهما القدماء منذ عصر غير قريب، وحدثوا عن خاصَّة كل منهما في التناول والتأليف، وهما باصطلاح المحدثين (المدرسة الأدبية) و(المدرسة الكلامية)" ..

---

(١) مناهج التجديد ص ٢٠٠.
(٢) المفتاح ص ٩٦.
(٣) مناهج التجديد ص ١١٠.
(٤) السابق ص ١١١.

ومتناسياً كذلك ما أفصح عنه فيما انفردت به كلٌّ في تناولها البلاغي، ومن أنك "تجد المدرسة الكلامية تتميز بالتحديد اللفظي والروح الجدلية، والعناية بالتعريف الصحيح والحرص على القاعدة المحددة، مع الإقلال من الشواهد الأدبية والاعتماد على المقاييس الفلسفية من خلقيات وطبيعيات ونحوها، وعلى القواعد المنطقية في الحكم بحسن الكلام وجودته أو بقبحه ورداءته، (بينا) تتميز المدرسة الأدبية بالإكثار المسرف من الشواهد الأدبية نثراً وشعراً مع الإقلال من التعاريف والقواعد والأقسام، والاعتماد في التقويم الأدبي على الذوق الفني وحاسة الجمال أكثر من الاعتماد على الفلسفيات المختلفة والمنطقيات"[1].

لقد اقترب الخولي إذاً من هدفه عندما كره من الفلسفة ما كره، وأحب منها ما أحب .. وها هو يقع في المحظور قائلاً عقيب ما ذكرته له: "وتُعني المدرسة الكلامية أولاً وأخيراً بإعجاز القرآن، الذي هو ملتقى ما بين الأدب والعقائد والفلسفة الإلهية وما أشبهها"[2] .. فهل يفهم غيري من كلامه سوى ما أفهمه أنا حين أقول: إنه يتخذ من خطته وهدفيه في تجديد البلاغة – البعيد منها والقريب – تكأة، ومن مطالبتنا بأن "نهمل بتاتاً الدراسة الفلسفية المستعجمة"[3] – وبالطبع: الكلامية التي هي "ملتقى الأدب والعقائد والفلسفة" – ستاراً، ليبتعد بنا أكثر فأكثر عن الغرض الأساسي لدراسة البلاغة وهو خدمة كتاب الله في إعجازه.. آمل أن أكون في ذلك مخطئاً .. لكن ليس قبل أن نستعرض ما قاله في الغاية من الدرس البلاغي، وسيأتي – بمشيئة الله – في آخر هذا البحث من هذه الدراسة الموضوعية النقدية.

ب – ما يحويه تجديد علم المعاني في ضوء الأسلوبية الحديثة من سلبيات

١ ـ الأسلوبية الحديثة ومكونات اللفظ العربي في علم المعاني

لم يفُتْ مصنفو البلاغة – وهم يعالجون أحوال اللفظ العربي الذي به يطابق الكلام مقتضى الحال، موضوع علم المعاني – أن يبحثوا عن موقع المفردة في الجملة بلاغة بعد أن بحثوا عن صحتها فصاحةً، وما ذلك إلا لكونها تمثل البنية التحتية والركيزة الأساسية للنّظم ولسياق الكلام – جملة كان هذا السياق أو فقرة أو رسالة أو قصيدة أو خطبة أو مقالة – وهنا يبدو التساؤل من قِبَل عبد القاهر وجيهاً والإجابة عنه أوجه، إذ يقول: "وهل تجد أحداً يقول: (هذه اللفظة فصيحة) إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: (لفظة متمكنة ومقبولة)، وفي خلافه: (قلقة ونابية ومستكرهة) إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنُّبُوِّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلِق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقاً للتالية في مؤداها؟"[4].

وإنما يروم عبد القاهر بهذا – وهو كما سبق أن ذكرنا ممن يرى أن الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد – أن يهون من شأن القول بأن مرد الفصاحة إلى مجرد اللفظ وتلاؤم حروفه، فهذه – على حد قوله – "شبهة ضعيفة، عسى أن يتعلق بها متعلق ممن يُقدِم على القول من غير روية، وهي أن يدَّعي أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي وتعديل مِزاج الحروف، حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان، كالذي أنشده الجاحظ من قول .. ابن يَسير[5]:

([1]) السابق ص ٩٦.
([2]) السابق.
([3]) السابق ص ٢٠٠.
([4]) دلائل الإعجاز ص ٤٤، ٤٥.
([5]) هو – كما في البيان والتبيين ١/ ٦٥، ٦٦ – محمد بن يسير الرياشي.

لا أذيِّل الآمــال بعدك إني * بعــدها بالآمــال جـــدُّ بخيل
كم لها موقــفاً بباب صديق * رجَعَتْ من نـــداه بالتعطيـــل
لم يَضِرْها والحمد لله شيء * وانثنت نحو عزف نفس ذهول"[١]

وفي تحر – منقطع النظير وغاية في الدقة – لمواقع الكلمة، يُدخل عبد القاهر في نفس هذه الشبهة الضعيفة من "يزعم أن الكلام إذا سلم من ذلك وصَفَا من شَوْبَه كان – هو – الفصيح المُشاد به والمشار إليه، وأن الصفاء أيضاً يكون على مراتب يعلو بعضها بعضاً، وأن له غاية إذا انتهى إليها كان الإعجاز"، ويقول في رد هذه الشبهة: "والذي يبطل هذه الشبهة – إن ذهب إليها ذاهب – أنا إن قصَرنا صفة (الفصاحة) على كون اللفظ كذلك وجعلناه المراد بها، لزمنا أن نُخرج (الفصاحة) من حيز البلاغة، ومن أن تكون نظيرة لها"[٢]، يعني فلا تكون الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد كما جاء ذلك عنه في موضع آخر، وعليه فلا تعارض.

وقد أدرك من ولي عبد القاهر هذا منه جيداً، وأدركوا دقة ما يصبو إليه شيخ البلاغة وإمامها، وحداهم هذا الفهم الدقيق لأن يقوموا – وفق ما تقتضيه طبيعة البحث العلمي – باستيعابٍ جامع مانع للتقلبات التي تعتري اللفظة الواحدة، وباستقصاء شامل لأوجه ومواضع تأثيرها وسر اختيارها دون سواها، ليجعلوا من كل ذلك قواعد عامة تعم كل ما يندرج تحته وما به ينضبط الكلام البليغ والأحكام الصادرة بحقه من حسن ورداءة .. وهداهم تفكيرهم – حتى يحيطوا بأحوال اللفظ العربي الذي به يطابق الكلام مقتضى الحال، موضوع علم المعاني – لأن يفصلوا بين الفصاحة والبلاغة ليجعلوا من الأولى مقدمة تخص الصحة من حيث البنية والاستعمال والإيناس أو – على حد قول عبد القاهر – التلاؤم اللفظي وتعديل مزاج الحروف، ومن الثانية مادة لتذوق وتلمس وتحسس مواقع الكلمة بين أخواتها والجملة بين أقرانها سعياً إلى تحقيق غاية المطابقة لمقتضى الحال وهي الغاية التي إذا انتُهي إليها كان الإعجاز .. فاستوعبوا بهذا – دون سواهم ممن حسبوا أن الأمثل حسب تقسيماتهم أن "نقتصر على كلمة (البلاغة) وصفاً لجمال الكلمة والكلام ونوفر كلمة (الفصاحة)"[٣] – ما قاله شيخ البلاغة ولم يخرجوا – في الوقت ذاته – عما خطّه وكانوا امتداداً طبيعياً له ولمن سبقهم بصفة عامة، هذا من جانب .. وتسنى لهم من جانب آخر أن يبتلوا – تنظيراً وتطبيقاً – ساحات الكلام التي يتحركون فيها بوقوفهم على أدوات هذا العلم المطلوبة والوسائل المحققة، ثم بانطلاقهم بعدئذ – من هذه القاعدة الصلبة – صوب الهدف لتحقيق الغاية المرجوة بالكشف عن أسباب القبول والأريحية التي يستشعرها المتلقي في جيد الكلام الذي يأتي على القمة منه النظم القرآني .. فكان عطاء من عرك كتبهم زاخراً، وكانت انتقادات من اقتفى أثرهم لافتة، وأحكام من احترم آراءهم صائبة، وما هذا التراث في شتى المعارف والفنون والعلوم والآداب العربية الذي لا تنبو فيه كلمة والذي حُقَّ لهذه الأمة أن تفخر به، إلا شهادة حق وعلامة صدق على ما أقول.

وقد كان عبد القاهر – في هذا حقيقة – امتداداً لسابقِيه، فالقاضي عبد الجبار في كتابه المغني الذي قام د. أمين الخولي بتحقيقه يرى أن "الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ولابد مع الضم أن تكون لكل كلمة صفة"[٤]، فلابد إذاً من وجود صفات للألفاظ تختص بها وهذه الصفات لا يظهر حسنها إلا بمصادفة الكلمة موقعها من الأسلوب وإلا بمقدار تمكنها منه، "فقد اتضح إذاً اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث

([١]) الدلائل ص ٥٧ وينظر ٦١، ومعنى (لا أذيل الآمال): لا أهينها، والتعطيل: الإهدار والإبطال، العزف عن الشيء: الزهد فيه والانصراف عنه، والنفس الذهول: أي التي تناست الشيء وتغافلت عنه.
([٢]) الدلائل ص ٥٨.
([٣]) مناهج التجديد ص ٢٠١.
([٤]) المغني للقاضي عبد الجبار ص ١٦، ١٩٩.

هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر"[١] ..
ولا معنى لكلام عبد القاهر هذا – الذي أتبعة بضرب المثل بكلمة (أخدع) و (شيء) حين حسنتا في مواضع دون غيرها – وما كان له أن يتأتى، إلا بربط الفصاحة بالبلاغة ارتباط الفرع بأصله والجزء بكله .. فكيف نستغني بكلمة (البلاغة) عن (الفصاحة)، على ما ينادي به الحداثيون؟.
على أن المتأمل في كلام الإمام عبد القاهر يجد أنه على نحو ما كان ضابطاً ومدركاً ومتذوقاً ولافتاً النظر تجاه موقع المفردة من الجملة – على ما مر بنا هنا – وموقع الجملة من أختها – على ما ذكرنا طرفاً منه إبان الحديث في بداية هذا المبحث عن (تجديد علم المعاني في ضوء صياغته التقليدية) وعلى ما سيأتي – كان مدركاً لمثل ذلك أيضاً في علاقات ما جاء من الجمل على أكثر من ذلك .. فها هو يقول في ذلك ضمن ما يقول: "اعلم أن مما يقل نظر الناس فيه من أمر (العطف) أنه قد يؤتى بالجملة فلا تُعطف على ما يليها، ولكن تُعطف على جملة بينها وبين هذه التي تُعطف جملة أو جملتان .. ومما لا يكون العطف فيه إلا على هذا الحد، قوله تعالى:
(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين .. القصص/ ٤٤، ٤٥) – فإنك – لو جريت على الظاهر فجعلت كل جملة معطوفة على ما يليها، منع منه المعنى، وذلك أنه يلزم منه أن يكون قوله: (وما كنت ثاوياً في أهل مدين) معطوفاً على قوله: (فتطاول عليهم العمر)، وذلك يقتضي دخوله على معنى (لكن)، ويصير كأنه قيل: (ولكنك ما كنت ثاوياً)، وذلك ما لا يخفى فساده"، ويعلق قائلاً: "وإذا كان كذلك، بان منه أنه يبغي أن يكون قد عطف مجموع (وما كنت ثاوياً في أهل مدين) إلى: (المرسلين)، على مجموع قوله: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) إلى قوله: (العمر)" .. وراح – في أسلوب أدبي تحليلي جذاب – يعلل لذلك[٢] .. وفي شاهد آخر هو قول المتنبي:

تولـــوا بغتـــة فكأن بيناً * تهيَّبني، ففاجـــأني اغتيالاً
فكان مسيرُ عيسِهِمُ ذَميلاً * وسيرُ الدمع إثرَهُمُ انهمالاً

– وقد امتنع فيه عطف (فكان مسير عيسِهم) على ما قبله للسبب ذاته، إذ لو عطفه على (ففاجأني) لفسد المعنى، "من حيث أنه يدخل في معنى (كأنَّ)، وذلك يؤدي إلى أن لا يكون مسير عيسهم حقيقة، ويكون متوهماً، كما كان تهيب البين كذلك"أ.هـ [٣] – راح يعلق فيقول: "وهاهنا شيء آخر دقيق، وهو أنك إذا نظرت إلى قوله: (فكان مسير عيسِهم ذميلاً)، وجدته لم يُعطف هو وحده على ما عطف عليه، ولكن تجد العطف قد تناول جملة البيت مربوطاً آخره بأوله"، ويقول: "فأمر العطف إذن، موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتعمِد أخرى إلى جملتين فتعطف بعضاً على بعض، ثم تعطف مجموع هذي على مجموع تلك"[٤].
ويقول تعليقاً على شاهد ثالث وهو كالنتيجة لكل ما سبق: "واعلم أن سبيل الجملتين في هذا وجعلهما بمجموعهما بمنزلة الجملة الواحدة، سبيل الجزأين تعقد منهما الجملة ثم يُجعل المجموع خبراً أوصفة أو حالاً، كقولك: (زيد قام غلامه) .. و(مررت برجل أبوه كريم)، و(جاءني زيد يعدو به فرسه)، فكما يكون الخبر والصفة والحال لا محالة في مجموع الجزأين لا في أحدهما، كذلك

([١]) الدلائل ص ٣٨ ط. المنار، ص ٤٦ ت شاكر، وينظر المدخل ص ٦٦.
([٢]) الدلائل ص ٢٤٤، ٢٤٧.
([٣]) من الدلائل ص ٢٤٤، والعيس كرائم الإبل، والذميل: السير السريع اللين.
([٤]) السابق ص ٢٤٥.

يكون الشرط في مجموع الجملتين لا في إحداهما، وإذ علمت ذلك في الشرط فاحتذِهِ في العطف، فإنك تجده مثله سواء"[1].

وإنما جاء ذلك في باب عقده – عليه رحمة الله – تحت مسمى (الفصل والوصل) وتبعه فيه البلاغيون بلا نكير، بما يعني إقرارهم بإجماع على صنيعه، وإن لاحظوه بكثرة في مواطن الفصل فجعلوه من موجباته وأطلقوا عليه مسمى (شبه كمال الانقطاع) .. على أن ما يجب التنبه إليه هنا هو أن البلاغيين حين عمدوا إلى الحديث عن مواطن (الفصل والوصل) بين الجملتين، لم يقصدوا أن يقصروه عليهما وإنما كان مرادهم من هذا كل جملتين متتاليتين ولو تعددت العشرات .. ولك أن تتفطن لهذا وتتأمله في قول شيخ البلاغيين الذي كان رائدهم في هذا: "اعلم أنه إذا كان المخبَر عنه في الجملتين واحداً كقولنا: (هو يقول ويفعل، ويضر وينفع، ويسيئ ويحسن، ويأمر وينهى، ويحل ويعقد، ويأخذ ويعطي، ويبيع ويشتري، ويأكل ويشرب) وأشباه ذلك، ازداد معنى الجمع في (الواو) قوة وظهوراً، وكان الأمر حينئذ صريحاً، وذلك أنك إذا قلت: (هو يضر وينفع)، كنت قد أفدت بالواو أنك أوجبت له الفعلين جميعاً وجعلته يفعلهما معاً، ولو قلت: (يضر ينفع) من غير (واو) لم يجب ذلك، بل قد يجوز أن يكون قولك (ينفع) رجوعاً عن قولك (يضر) وإبطالاً له"، ويتبع – رحمه الله – ذلك بالقول بأنه "إذا وقع الفعلان في مثل هذا في الصلة، ازداد الاشتباك والاقتران حتى لا يُتصور تقدير إفراد في أحدهما عن الآخر، وذلك في مثل قولك: (العجب من أني أحسنتُ وأسأتَ) و(يكفيك ما قلتُ وسمعتَ) و(أيحسنُ أن تنهى عن شيء وتأتيَ مثله؟)، وذلك أنه لا يشتبه على عاقل أن المعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد، ومن البين في ذلك قوله:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم * وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

والمعنى: لا تطمعوا أن تروا إكرامنا قد وجد مع إهانتكم، وجامعها في الحصول"[2]

إلى غير ذلك مما يضيق بحصره المقام.

فها نحن نرى البلاغة القديمة بتحليلاتها الموضوعية يمتد أفق البحث فيها عن علاقات جملها، ليشمل القطعة والمجموعة من الجمل والأبيات، والمهم ليس هذا وإنما هو مدى تأثير هذه الجمل المتتابعة على المتلقي، هل يكون ذلك من أول الفقر أو بعد سرد طرف منها .. وفي شأن ذلك جاء في الدلائل: "اعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسنَ، كالأجزاء من الصِّبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تُكبر شأن صاحبه ولا تقضي له بالحذق والأستاذية وسعة الذَّرع وشدة المُنَّة حتى تستوفيَ القطعة وتأتيَ على عدة أبيات .. ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة واحدة، ويأتيك منه ما يملأ العين ضَرْبَةً حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحِذْق، وتشهد له بفضل المُنَّة وطول الباع، وحتى تعلم – إن لم تعلم القائلَ – أنه من قِيل شاعر فحل، وأنه خرج من تحت صنَّاع، وذلك ما إذا أنشدته وضعت فيه اليد على شيء فقلت: هذا، هذا! وما كان كذلك فهو الشعر الشاعر والكلام الفاخر والنمط العالي الشريف، والذي لا تجده إلا في شعر الفحول البُزَّل[3] ثم المطبوعين الذين يُلهمون القول إلهاماً[4]، ثم إنك تحتاج إلى أن تستقري عدة قصائد، بل أن تفليَ ديواناً من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات"[5]، وكم كنت أود أن أستعرض نماذج من التي ساقها في أسلوب خلاب لولا ضيق الوقت والمقام.

([1]) الدلائل ص ٢٤٦، ٢٤٧.

([2]) الدلائل ص ٢٢٦ وينظر ص ٢٢٧.

([3]) جمع بازل: البعير ينشق نابه ويبزلُ عند دخوله في السنة التاسعة وتستحكم قوته.

([4]) فهل يَترُك أو يُنكر مثل هذا الكلام الذي يصدر عن حس مرهف وبصير باللغة، إلا من أعمى الله بصيرته.

([5]) الدلائل ص ٨٨، ٨٩.

ثم إن "هناك – على حد قول فارس الحلبة وحامي حمى البلاغة المعاصرة ومجددها (برأيي) على الحقيقة د. أبي موسى – الجمل الصغيرة المختصرة المكونة من مفردات، وهناك الجمل التي تطول – إلى حد ما – بسبب كثرة تعلقاتها، وهناك جمل تطول أكثر لأنها تتكون من جمل، وقد تتكاثر الجمل الداخلة في تكوين الجملة كأن تقع جملة خبراً وفيها فاعل أو مفعول أو جار ومجرور، ثم يوصف هذا المفرد بجملة يقع فيها حال أو استثناء أو شرط، وقد تعطف على هذه أو تلك جملة أو جملتان، وقد يتولد من إحداها ما يستتبع استثناءً أو شرطاً، وهكذا تمتد بعض الفروع وتطول، وجمل الشرط مثال واضح في هذا الذي نقوله، فقد تترادف جمل معطوفة على جملة الشرط ثم تأتي جملة الجواب وقد تكاثرت على عاتقها هي الأخرى جملة من الجمل، ولسنا في حاجة إلى أن نضرب من اللغة شواهد على ذلك .. فكل كلام قد ثقفه صاحبه ونقّاه – سواء أكان شعراً أو نثراً – يعالج ما شئت من الشئون [والفنون]، إذا تأملته وجدت أحوال جمله تتفاوت من هذه الناحية، وقد نبه عبد القاهر إلى هذا التداخل في الجمل، وعرض أنماطاً من الجمل الكبيرة التي تذوب في تشكيلها مجموعة تتكاثر من الجمل الصغيرة، كما في آية: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس .. يونس/ ٢٤)، وقد ابتلعت هذه الجملة في جوفها عشر جمل دخل بعضها في بعض، وأنواع الارتباطات داخل هذه الجمل وطرائق الصَّوْغ ووجه الترتيب، كل ذلك باب من أبواب النظر، وكل ذلك يختلف لاختلاف الأحوال والمقاصد التي يتجه إليها الكلام، كما يختلف باختلاف أحوال المتكلمين وطبائعهم في إبانتهم عما في نفوسهم ومدى تمكنهم من أداتهم وقوة إحساسهم بما يجدون، وهذا باب واسع جداً، لأن الدراسة المتأنية لكل شاعر وأديب وصاحب قلم من هذه الزاوية، تهدي إلى نتائج طيبة في الدراسة البلاغية الجادة، فلكل متكلم طبع في بيانه ومزاج يفرغه في نظام تكوين جمله وتشابك أطرافها، وليس من الصواب أن نزعم أن أحوال جملة الجاحظ من هذه الناحية كجملة ابن المقفع والصاحب، وأن ما نجده في بناء جملة الفرزدق هو ما نجد في بناء جملة الأخطل أو جرير"[١].

وهذا أبلغ رد على بطلان ما جاء بالبند الثالث في منهج تجديد البلاغة لمقترحه (أمين الخولي) من أن دور السابقين ولاحقيهم بإحسان كان مقصوراً "على دراسة الجملة وأجزائها فحسب، لا نرى شيئاً من أبحاثها – أي البلاغة – يزيد على ذلك"[٢]، وأن الوقوف عند "اللفظة المفردة لا يكفي في درسها البلاغي هذا القدر اليسير الذي ألموا به"[٣] .. وعلى أن أية محاولة لإثبات عكس ذلك هي محاولة باطلة وغير موفقة ومحكوم عليها بالفشل الذريع.

وندع شيخ البلاغة المعاصرة د/ أبا موسى .. يقول – موسعاً نطاق البحث لآفاق هي أرحب مما يقترحه الحداثيون بعد أن أثبتوا عجزهم عن ذلك وعن إدراك حقيقة التوسع في ميدان الدارسات البلاغية وعن آفاقه الممتدة إلى ما لا نهاية–: "وبحث الجملة من هذه الناحية يفتح لنا – كما أشرنا – الباب لدراسة بناء الجملة عند كثير من الشعراء والكتاب الشامخين والذين نعدهم معالم بارزة أو منعطفات واضحة في الحياة الفكرية والأدبية، والبحوث الجادة في هذا الصدد تقدم لنا الملامح الأساسية لبناء الجملة في كل فرع من فروع المعرفة، فطبع تشكيل الجملة في الفقه يختلف عن طبع الجملة في الشعر أو الخطبة أو الفلسفة أو النحو أو التاريخ" .. ولآفاق أرحب وأرحب حين يقول عقب ذلك: "كما تبرز الملامح المميزة لبناء الجملة في كل عصر من عصور الفكر والأدب، فبناء الجملة في العصر الأول ليس باقياً بكل طبائعه في العصر العباسي ولا فيما وراء ذلك من

(١) دلالات التراكيب د. أبو موسى ٢٨٨.
(٢) مناهج التجديد ص ٢٠٠.
(٣) السابق ص٢٠٠، وينظر ص ١٢٥ وفن القول ١٠، ٨٠ وغيرهما.

أزمان، وهكذا تختلف طبائع الجملة في أدب وفكر أهل المغرب عنها في تراث أهل المشرق، وكثير من الأحوال النفسية والعقلية للفرد والجيل والعصر والأمة منعكس لا محالة في هذه الأحوال" .. وإلى أرحب من سابقيه حين يقول عقبهما: "هذا فضلاً عن أن الجملة القرآنية لم تدرس من هذه الزاوية مع أن تصاريفها لا ينتهي منها العجب[1]، واقرأ أي سورة وحاول أن ترصد أحوال الجمل في تداخلها وتتابعها، وإذا أحسنت ذلك ظهر لك ما نريده"[2].

وكم كنت أود أن أستعرض بعضاً من هذا البعض الذي وعد به شيخنا د/ أبو موسى وأبدع في تصويره لاسيما ما عرض له في كتاب ربنا الذي يريدونه وراءهم ظهرياً– وهو وكل ما ذكرنا يعد عمدة في الاحتجاج على أهل الحداثة – لولا أيضاً ضيق الوقت والمقام.

ولعله قد وضح الآن أن المطالبة بعدم إيقافنا بالبحث البلاغي عند الجملة، بأن "نمده إلى الفقرة والعمل الفني الكامل لنبحث فيها الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته ومزايا أنواعه المختلفة، ولننظر النظرة الشاملة الجامعة في الأثر الأدبي كله"[3]، أو – وبعبارة أخرى ذكرها أيضاً د. أمين الخولي في كتاب له آخر: – المطالبة بـ "تحلية الدرس البلاغي – بعد تخليه أولا من مجرد البحث عن المفردة والجملة – بأشياء منها: توسعة دائرة البحث وبسط أفقه، فلا يقتصر على الجملة كما كان في القديم من عمل المدرسة الكلامية .. وتحليته كذلك بتخصيص مكان في هذه الدائرة الواسعة .. لدرس الأساليب فلا نقف في ذلك عند قليل ما ألم به القدماء في هذا، ولا نكتفي بتكملته المحدثة، بل نجعل هذا الدرس وسيلة للإشراف على آفاق أدبية ونقدية، ومذاهب في ذلك ومدارس في الفن القولي نعرِّف بها ونبين أهدافها وخصائصها، ففي الأساليب نتحدث – بعد المعروف الشائع – عن الفكاهة والتهكم وما إليهما من حيث هي عوالم فنية ونزعات أدبية، كما ندرس الرمز الفني والرمزية الأدبية لا في حدودها الساذجة التي أشير إلى أثارة منها في الكناية، بل من حيث هي ضروب من الفن تتصل بموجهات نفسية ونحوها، وترمي إلى أهداف أدبية واجتماعية وما إليها من كبريات الغايات"[4].

كل ذلك سخف من القول وخلط للأمور، وما هو إلا تحصيل حاصل ولا يحمل في طياته أي جديد وجاء في غير مكانه، فما نادي به د. الخولي هنا وعده وأصحابه تجديداً، لم يغفل عنه البحث البلاغي فيما مضى، بل أخذ ما يحتاجه منه بحساب وعلى وجهه الصحيح وبالقدر الذي يحفظ عليه كيانه، ليقينه أن التوسعة فيه – على هذا الشكل الذي نصوا عليه وأقروه وتضافروا عليه وتواصوا به – آتية على غير المقتضى، إذ المجال الحقيقي لذاك أو ما يستحدث منه فيما بعد بوجه عام، هو علوم الأدب والنقد الأدبي والأدب المقارن .. كما أن دراسة النص الأدبي والتأريخ لمراحله وأزمانه وتحليل نصوصه وفنونه المتعددة والمتنوعة على اختلاف أشكالها وأنماطها مجاله الحقيقي هو الدرس الأدبي لا البلاغي .. وخلط هذه الأمور على حساب البلاغة بهذا الشكل، واختزال الدرس البلاغي أو العمل على تغييره أو تشويهه أو إلغائه، هو ضياع لميدان كبير فسيح يفيد منه – من دون شك وبلا مبالغة – كل عمل أدبي قصيدة كان أو مقالة أو رسالة أو خطبة أو خلافه .. إذ نفقد بذلك، البحث عن وجوه الكلام وجمالياته ومحاسنه اللفظية والمعنوية، وخصوصياته ومعانيه المختبئة وراء ظواهر ودلالات الألفاظ الوضعية وما أكثرها وأكثر بها .. كما أن ذلك يؤدي بنا إلى أن نتنكر لما امتلأت به كتب التراث – قديمه وحديثه – من نكات مستقاة

([1]) لكن أنى ذلك وقد أغلقوا على أنفسهم باب الانفتاح عن البلاغة العربية الأصيلة، حين أخرجوا كتاب الله وآياته المحكمة التي يجب أن تخدم على العين والرأس من دائرة البحث فضلاً عن التوسع فيه.

([2]) دلالات التراكيب ص ٢٩٢، ٢٩٣ ويقرأ تعقيبه بأسفل الصحيفة باعتباره نموذجاً للتطبيق، كما ينظر مقدمة الخصائص له ص: ط وما بعدها، ومقتضى الحال د. إبراهيم الخولي ٧٤٥، ٧٢٥ وما بعدهما.

([3]) مناهج التجديد ص ٢٠٠، ٢٠١.

([4]) فن القول ص ٢٣٩: ٢٤١ باختصار شديد.

من الدرس البلاغي جاءت في كتابات أعلام الفكر والأدب .. ولأن تتضافر العلوم القريبة الصلة في خدمة وسبر النص الأدبي الواحد أيا ما كان، ولأن تُتَلمس له الوجوه العديدة بغية أن تتكشف أسراره وأبعاده، خير ألف مرة من أن تتقلص أو تختزل.

٢ ـ الأسلوبية الحديثة والرجوع بعلم المعاني إلى الوراء حيث الحديث مرة أخرى عن قضية اللفظ والمعنى

على أن المتأمل في بواطن الأمور بل وفي ظواهرها يجد بوضوح أن كلام الحداثيين في البند الرابع للخطة التي وضعوها لتجديد الدرس البلاغي – بعد الانقضاض على كل قديم وتخلية البحث البلاغي المعاصر منه[١] – وما عابوه في هذا البند على القدماء من قصرهم "البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أدائها للمعاني الجزئية بالجملة الواحدة، أو الجمل المتصلة في معنى واحد، ولم يجاوزا ذلك"[٢]، ومن أن ذلك ظهر حتى في تعريفهم علم المعاني وعلم البيان حين ذكروا أن "علم المعاني: تعرف به أحوال اللفظ العربي من حيث مطابقته لمقتضى الحال، وعلم البيان يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة، وأرادوا باللفظ العربي أحوال الجملة وأحوال أجزائها، وبالمعنى الواحد: التشبيه أو المجاز أو الاستعارة أو كناية لا غير، أما المعاني الأدبية والأغراض الفنية التي هي روح الفن القولي ومظهر عظمة الأديب وأثر ثقافته وشخصيته، فلم ينظروا فيها"، وأنه لذلك لابد "أن نفرد المعاني بالبحث المستقل بعد بحث الألفاظ – مفردة وجملاً وفقراً – فنعلّم الدارس كيف يوجِد هذه المعاني وكيف يصححها؟، وكيف يرتبها ويعرضها؟، وما إلى ذلك"[٣] .. هو كلام يعوزه الكثير من الدقة والنظرة العلمية الموضوعية الواعية لإدراك حقيقة أن التشبيه وملا تلاه، ليس هو مراد البلاغيين بالمعنى الواحد وإنما هي طرق الأداء التي تأتي عليها التراكيب المتعاقبة على المعنى الواحد، للوقوف على دلالات هذه الطرق وخصوصيات كلٍّ .. وحقيقة أن علاقة الألفاظ بمعانيها الثانوية فيما يعرف لدى البعض بالدلالة الفنية أو الجزئية، لا تعرف هذه النظرة الضيقة أو الجزئية التي هي في ذهن الحداثيين، وإنما تتسع لتشمل كل ضروب الكلام وصوره وكل فنون الأدب وأغراضه .. فمهمة الأديب البليغ ما هي إلا اختيار بين ممكنات كلها صحيحة على شرط النحو، ولكنها تنطوي على فروق واختلافات بقدر ما بين أسلوب الصحف مثلاً وأسلوب النظم المعجز في كتاب الله، اختيار بين احتمالات لائحة يحتمل الموضوع الواحد أكثر من واحد منها، وكلها في نظر النحو سواء لكنها في ميزان البلاغة جد مختلفة .. ومن هنا يقرر عبد القاهر في دقة وعمق أن المزية: إنما تكون في الموضع إذا احتمل أن يرد فيه أكثر من صورة صحيحة نحوياً "ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسناً وقبولاً يعدمهما إذا أنت تركته إلى الثاني"[٤].

لأجل هذا فقد غلط من ظن أن المعاني الأدبية أو الأغراض الفنية تستقل ببلاغة، أو أن العلم بها كفيل بتحقيق المزية في الألفاظ، وغلط كذلك من ظن التلازم بين هذه المعاني الأدبية وبين الألفاظ، وغلط معهما من اعتقد أن المزية لهذه المعاني في ذاتها.

ومما يفيد ويدل على أن القدامى ما عنوا بدلالة الألفاظ الفنية – أو (الجزئية) على حد ما يحلو للبعض أن يسميها – هذه النظرة الضيقة التي رأى الحداثيون أن تعويضها إنما يكون بالاتساع في المعاني الأدبية، هو أن:

---

(١) ينظر كلام أمين الخولي في (فن القول) عن التخلية والتحلية من ص ٢٢٦: ٢٦٩

(٢) مناهج التجديد ص ٢٠١.

(٣) السابق بتصرف.

(٤) الدلائل ص ٢٨٦ وينظر المقتضى د. إبراهيم الخولي ص ١٥٧.

١- "من شأن المعاني – يعني التي هي خصائص التراكيب وما تحمله من دلالات – أن تختلف عليها الصور، وتَحْدُثُ فيها خواص ومزايا من بعد ألا تكون، وإنك ترى الشاعر قد عمد إلى معنى مبتذل فصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق إذا هو أغرب في صنعة خاتم وعَمِلِ شَنْفٍ وغيرهما من أصناف الحلي"[١] .. ولا دلالة لذلك سوى نفي أن تكون "المزية الكاملة التي يفضل بها كلام كلاماً ويكون بها الإعجاز، راجعة إلى المعنى"[٢]، مجرداً عن ذلك، على نحو ما صرح به الحداثيون في نحو قولهم: "لا بد أن نفرد المعاني بالبحث المستقل بعد بحث الألفاظ .. فنعلم الدارس كيف يوجد هذه المعاني؟ وكيف يصححها؟ وكيف يرتبها ويعرضها؟ وما إلى ذلك"[٣].

٢- وأن ما أتى من عبد القاهر على هيئة سؤال وجواب قال فيهما: "وهل تجد أحداً يقول: (هذه اللفظة فصيحة) إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: (لفظة متمكنة ومقبولة)، وفي خلافه: (قلقة ونابية ومستكرهة) إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنُّبُوِّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلِق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقَاً للتالية في مؤداها؟"[٤]، ومن أن ذلك إنما جاء منه للرد على الشبهة الضعيفة – على حد قوله – التي "عسى أن يتعلق بها متعلق ممن يُقدِم على القول من غير روية، وهي أن يدَّعي أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي وتعديل مِزاج الحروف، حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان"[٥]، ومن أن مما "يبطل هذه الشبهة – إن ذهب إليها ذاهب – أنا إن قصَرنا صفة (الفصاحة) على كون اللفظ كذلك وجعلناه المراد منه، لَزمنا أن نُخرج (الفصاحة) من حيز البلاغة، ومن أن تكون نظيرة لها"[٦] .. كان توضيحاً لمهمة البلاغي بالأساس، لكون المعاني الجزئية التي يُنقص أمين الخولي من شأنها، هي هدف الدرس البلاغي على الخصوص .. وقوله بأن البلاغة بسببها "تقع في تنسيق العلوم الأدبية بعد النحو"، لذا يجب تخلية البحث البلاغي منها[٧]، كلام غير صحيح لما هو معروف من توظيف البلاغة للدرس النحوي وجعل الأخير خدم لها وقيد فيها، ومن هنا وجب للكلام البليغ وشرط فيه، أن يكون خالياً من (ضعف التأليف) الذي لا يعني سوى الإخلال بما اشتهر من قواعد النحو .. كما كان فاتحة خير لمن أتوا بعد عبد القاهر من متأخري البلاغيين ممن قصروا صفة (الفصاحة) على التلاؤم اللفظي وتعديل مزاج الحروف – حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان أو كلمات يتعثر اللسان بالتفوه بها – وجعله المراد منها، فأخرجوا (الفصاحة) بذلك من حيز البلاغة، ومن أن تكون نظيرة لها.

ذلك أنه لا يمكن بحال أن يستغنى بالدلالة الفنية للفظة عن الدلالة الوضعية والصحة الإعرابية، كما لا يمكن أن يستغنى بالمعاني الثانوية للجملة عن المعاني الأصلية لألفاظها، لكونهما يمثلان جناحي الطائر اللذين لا يمكن لـه الاستغناء بواحد منهما عن الآخر .. ومن ثم لا يمكن الاستغناء بالبلاغة عن الفصاحة، إذ الأخيرة – والحال كذلك – بمثابة الجزء من الكل والفرع من الأصل.

فالفصاحة – بفصلها عن البلاغة لدى المتأخرين – تمثل الإطار الخارجي والقالب الذي تُصَب فيه معاني المفردات والجمل الفنية والثانوية بعد غربلة هذه المفردات وتيك الجمل – نحواً وصرفاً

---

(١) الدلائل ص ٤٨١.
(٢) قضية اللفظ والمعنى د. العماري ص ٣٧٧.
(٣) مناهج التجديد ص ٢٠١.
(٤) دلائل الإعجاز ص ٤٤، ٤٥.
(٥) الدلائل ص ٥٧.
(٦) الدلائل ص ٥٨.
(٧) ينظر فن القول ص ٢٢٦.

ووضعاً ولغة وصحة وإعراباً – مما قد يعلق بهما من شوائب، لتُنقَّى الجمل ومفرداتها أولاً قبل أن نخلع عليها ثوب المعاني الفنية وحلة الخصائص التركيبية التي هو مادة البلاغة والحكم على الكلام بالحسن والقبول، ومن البداهة أن يكون للبلاغة مقدمة تكشف عن هذا الإطار، وليس هنا سوى ما ارتآه القدماء بفصلهم إياها عن البلاغة وجعلها مقدمة لها، يقول د. التلب: "وهذا اتجاه سديد وصنيع محمود، لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، وليس من الحكمة أن نشرع في تفاصيل علم من العلوم قبل أن نقف على المراد به والغرض منه"[1] .. وعليه فالقول بأن الجدة تقتضي منا أن "نقتصر على كلمة (البلاغة) وصفاً لجمال الكلمة والكلم ونوفر كلمة (الفصاحة)"[2]، هو ضرب من العبث والهذيان، ما قصد إليه المتقدمون إطلاقاً، وإنما قصدوا بترادفها للبلاغة الرد على أنصار اللفظ، كما قصدوا بمغايرتها إياها تحديد مرادهم بالنظم وما وراء الكلمات والجمل من معان ثانويـــة، وكذا تحديد وظيفة البلاغي تجاه الدلالات الوضعية وألفاظها والجمل النحوية وأجزائها.

فالوقوف بالنصوص على ظاهر ألفاظها دون ما تعمق في فهم مرادها على الحقيقة، ودون ما تقدير أو مراعاة للمعاني الثانوية والمخبئة وراء تيك الألفاظ، أدى إلى استتار المعاني المرادة في نصوص البلغاء، وإلى غموض المفاهيم البلاغية تأصيلاً وتطبيقاً، و"غموض البلاغة في نشأتها على هذا النحو كان له أثر معوق في تطورها"[3]، بل وفي فهم مراد السابقين .. ولعل هذا الغموض هو ما كان ابن الأثير يتطلع إلى فك إلغازه وإشكاله، بل أكاد أجزم أنه هو ما كان يفتقده ويريده ويقصد إلى الكشف عنه في قوله: "إن العلوم ثلاثة: علم نضج وما احترق وهو علم الأصول والنحو، <u>وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان</u> والتفسير، وعلم نضج وما احترق وهو علم الفقه والحديث"[4]، وساقه أمين الخولي غير ما مرة[5] ووضعه في غير موضعه ولم يكتف بذلك حتى اتخذ – وسائر دعاة الحداثة – منه ذريعة للنيل من البلاغـــة العربيـــة وقلبها رأساً على عقب، وتكـــأة للقضاء على أسس البلاغة ومقدمتها وأصولها وتقسيماتها وغايتها، وذلك بعـــد أن فهموها على غير وجهها[6].

وذاك الذي سلف ذكره يصوره عبد القاهر بقوله: "واعلم أنك لا ترى في الدنيا علماً قد جرى الأمر فيه بديئاً وأخيراً على ما جرى عليه علم (الفصاحة والبيان)، أما البديء: فهو أنك لا ترى نوعاً من أنواع العلوم، إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذي علّموا الناس، وجدت العبارة فيه أكثر من الإشارة والتصريح أغلب من التلويح، والأمر في (علم الفصاحة)[7]، بالضد من هذا، فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه، وجدت جلّه أو كلّه رمزاً ووحياً وكناية وتعريضاً وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن

([1]) دراسات في علم المعاني د. إبراهيم التلب ص ٣.
([2]) مناهج التجديد ص ٢١.
([3]) مكان النحو من نظرية النظم عند عبد القاهر د. إبراهيم الخولي ص ٦.
([4]) الأشباه والنظائر للسيوطي ط. الهند ١ ص ٦.
([5]) ينظر على سبيل المثال مناهج التجديد ص ٩٧وفن القول ٦٤، ١٠٨.
([6]) فالرجل – من دونهم – معذور، إذ هو لم يجد في البلاغة حتى زمن وفاته ٦٧٣ ما يشفي غلته في ضبط ما به تنكشف المعاني وما وراءها، وهو – على حد قول الخولي نفسه في مناهج التجديد ص ١٠٤– "أديب ممارس وله من الاعتداد بنفسه ما يوشك أن يكون غروراً" .. ولم ير أمامه سوى بلاغة عبد القاهر ت ٤٧١ المسهبة بالروح الأدبية، وبلاغة السكاكي ت ٦٢٦ الغارقة حتى الثمالة بالفلسفة والأقيسة المنطقية، مما يعني أن البلاغة في عصره كانت في مسيس الحاجة إلى همزة وصل وقطب رحى ورجل حكمة ينضجها ويجمع لها بين الرصانة والضبط لعلومها ومباحثها، وقد كان بينه وبين الخطيب القزويني ت ٧٣٩ الذي غطى هذا الفراغ ما يقرب من ست وستين عاماً .. فماذا عساه أن يقول أو أن يفعل وهو لم يؤت ما أوتي الخطيب من الفتح أو الاختصاص بالفن؟ ومن يدري، فلعل الخطيب كان إجابة لدعوة ابن الأثير، ونجدة لصيحته وندائه؟؟!!.
([7]) (يعني المصحوبة بمرادات السابقين على الحقيقة، والمرادفة عند عبد القاهر لمفهوم البلاغة).

له إلا من غلغل الفِكر وأدقَّ النظر .. وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلام الأولين ويتدارسوه، ويكلِّم به بعضهم بعضاً من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم – إن يسألوا عنه – بيان له وتفسير إلا (علم الفصاحة)، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظاً للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، أو يستطيعوا – إن يسألوا عنها – أن يذكروا لها تفسيراً يصح"[1] .. وعليه فما ذهب إليه المتأخرون – من فصل الفصاحة عن البلاغة – له سببه الوجيه، وللمتأخرين – في جعل مقدمة لاستظهاره – عذر.
فماذا لو أضفنا إلى ما سبق، أن الدلالة الوضعية – التي تسبق عادة الدلالة الفنية – غايتها مجرد توصيل الأفكار ونقل الحقائق الواضحة إلى المتلقي، وهذه الدلالة – في رأي البلاغيين – تحقق أحد غرضين، إما الفائدة: وذلك حين يقوم الخبر بإيصال حقيقة كان يجهلها المتلقي، وإما لازم الفائدة: وذلك حين يكون المخاطب عالماً بمضمون الخبر ويكون الغرض إعلامه بأن المتكلم يعلمه كذلك .. وأن من شأن ذلك أن يوقفنا على الفرق والميزة وسر الأريحية وقبول النفس حين تأتي الدلالة الفنية فتؤثِر كلمة على أخرى وجملة على سواها، وأن يوقفنا كذلك على الاعتبارات المناسبة في مراعاة المقتضى والخصائص الأسلوبية ودلالات التراكيب، وذاك هو أساس علم المعاني[2] .. كما أن من ثمرات الدلالة الفنية أنها تمكن من معرفة ما إذا كانت اللفظة مستعملة في معناها الحقيقي فتكون الحقيقة اللغوية أو انتقلت لقرينة وملابسة إلى معنى مغاير فيكون المجاز اللغوي، وأن الوقوف على ذلك هو عمود علم البيان.

ويدل على أن أرباب التجديد يفوتهم ويفوت غيرهم ممن أجاب دعوتهم أو دعا بها، الانتفاع بالدرس البلاغي والوقوف على الوجوه والأسرار البلاغية في الجمل ومفرداتها، وفي الآية وفي الفقرة والمقالة والرسالة إذا ما هونوا من شأن الاعتبارات الفنية في الجمل والخصائص الأسلوبية فما فوقها .. ما صرح به عبد القاهر من أن "المعنى الذي له كانت هذه الكلم – بيت شعر أو فصل خطاب – هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة، وهذا الحكم – يعني الاختصاص في الترتيب – يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل .. وعلى ذلك وُضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة وأقسام الكلام المدونة، فقيل:من حق هذا أن يسبِق ذلك ومن حق ما هاهنا أن يقع هناك"[3].. يقول:"ولن تجد أيمن طائراً وأحسن أولاً وآخراً، وأهدى إلى الإحسان وأجلبَ للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيتها وتدَعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إن تُركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تَلبَس من المعارض إلا ما يزينها"[4]، ويقول عقبه: "واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته والأساس الذي وضعته، أن أتوصل إلى بيان أن المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصِّل أجناسها وأنواعها، وأتتبَّع خاصّها ومشاعَها، وأبين أحوالها في كرم مَنْصِبِها من العقل وتمكُّنِها من نِصَابه، وقرب رحِمَها منه أو بُعدها – حين تُنسب – عنه، وكونها كالحليف الجاري مجرى النسب، أو الزنيم الملصق بالقوم لا يقبلونه ولا يمتعضون له ولا يذُبُّون دونه"[5].

---

(1) الدلائل ص ٤٥٥، ٤٥٦ ت شاكر.
(2) وهذا وجه آخر يمكن أن يضاف إلى وجوه حصر مسائل الإسناد الخبري واندراجهما تحت (المعاني)، فيكون ضمن مباحثه:(الإسناد الخبري) سواء كانت دلالته وضعية لتشمل الفائدة ولازمها، أم فنية ليشمل (المجاز العقلي)
(3) أسرار البلاغة ص ٥.
(4) السابق ص ١٤.
(5) السابق ص ٢٦.

إن الإمام يتحدث هنا – في ميزات الخصائص وتفضيل قول على آخر – عن مهمة البلاغة بالأساس، وعن العبارة في كلام البلغاء والأدباء وعما توحي به من "إيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفِكر وأدقَّ النظر"، وعن المعنى الفني الكامن وراء مجيء وترتيب "الكلم – بيت شعر أو فصل خطاب – على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة"، وعن هذا الترتيب – والحكم عليه بالحسن والمزية على التفاوت في المراتب والمنازل – "يقع في الألفاظ مرتباً على المعاني المرتبة في النفس، المنتظمة فيها على قضية العقل" .. و"في الجمل المركبة وأقسام الكلام المدونة"، حتى تقع الموازنة والتفاضل فيقال: "من حق هذا أن يسبق ذلك ومن حق ما هاهنا أن يقع هناك"[١].

فهل يرى عاقل من هذا أو يشتم منه اقتصار البلاغيين القدامى على الجملة ومفرداتها، وأن قصوراً قد انتابهم استلزم "قصر البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أدائها <u>للمعاني الجزئية</u>" .. أو استلزم القول بأن "الأسلوبية – كعلم جديد – حاولت تجنب المزالق التي وقعت فيها البلاغة القديمة من حيث إغراقها في الشكلية، ومن حيث اقتصارها على <u>الدراسة الجزئية</u> بتناول اللفظة المفردة، ثم الصعود إلى الجملة الواحدة" على حد ما جاء في عبارة صاحب كتاب (البلاغة والأسلوبية) د. محمد عبد المطلب[٢]..أو استلزم – تحت عنوان (دائرة البحث وسعتها) – تخلية الدرس البلاغي مما فعله البلاغيون حين "حصروا أبحاث علم المعاني في أحوال طرفي الجملة والجملة، وحصروا أبحاث البيان في المجاز والكناية"، وأنه يجب لأجل ذا أن يتم التجديد لـ "تتسع دائرة البحث لكل ما تشمله طبيعة الفن القولي وعمل الأديب فيه"، ولـ "يشمل الفن القولي في بسائطه وفي مركباته، فتبحث المعاني وتبحث الألفاظ: مفردات وجملاً وأساليب، وتبحث صور التعبير التي يصورها أصحاب الفن القولي نظماً ونثراً فناً فناً"[٣]؟؟!! .. وهل يصح مثل هذا مع قول عبد القاهر شيخ البلاغيين كالمطبق: "إن المعاني الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان على أول وردِّ تالٍ على سابق، أفلستَ تحتاج في الوقوف على الغرض من قول البحتري[٤]: (كالبدر أفرط في العلو)، إلى أن تعرف البيت الأول، فتتصور حقيقة المراد منه ووجه المجاز في كونه دانياً شاسعاً، وترقم ذلك في قلبك ثم تعود إلى ما يعرض البيت الثاني عليك من حال البدر، ثم تقابل إحدى الصورتين بالأخرى وتردَّ البصر من هذه إلى تلك، وتنظر إليه كيف شرط في العلو الإفراط ليشاكل قوله: (شاسع)، لأن الشسوع هو الشديد من البُعد، ثم قابله بما لا يشاكله من مراعاة التناهي في القرب فقال: (جد قريب)، فهذا الذي أردت بـ (الحاجة إلى الفكر)، وبأن (المعنى لا يحصل لك إلا بعد انبعاث منك في طلبه واجتهاد في نيله)"[٥]؟؟!!.

يقول د. طبل – أحد المشهود لهم بالعلم والفضل – في تعريف وبيان قدر الدلالات الفنية التي ينبغي أن يتوسع فيها وأن تكون – على حد قول مريدي التجديد بحق في ميدان الدراسات البلاغية – "روح الفن القولي ومظهر عظمة الأديب وأثر ثقافته وشخصيته": إنها "هي تلك التي يستوحيها قارئ الأدب من لغته الفنية، وتلك هي مجال اهتمام البلاغيين، وذلك لأن الدلالة الوضعية إنما تؤدى بلغة سردية مكشوفة قد استخدمت فيها الألفاظ استخداماً منطقياً منضبطاً، بحيث تنقل ما تتضمنه من حقائق وأفكار في سهولة ويسر، أما اللغة الفنية فهي لغة مكثفة حافلة بالمعاني ثرية

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٥٥ وأسرار البلاغة ص ٥.
(٢) البلاغة والأسلوبية د. محمد عبد المطلب ص ٢٦٨، ومناهج التجديد لأمين الخولي ص ٢٠١.
(٣) فن القول ص ٢٣٥.
(٤) في بيتيه القائل فيهما: دان على أيدي العفـاة وشاسع * عن كل ندٍّ في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوءُه * للعصبـة السارين جِد قريب
وهما في ديوانه، و(الشاسع): البعيد المكان، و(الضريب): النظير.
(٥) أسرار البلاغة ص ١٤٤، ١٤٥.

بالدلالات، فالأديب إنما ينتقي ألفاظه بوحي من عاطفته وينظمها نظماً خاصاً لكي يجسد في لغته الخاصة أبعاد تجربته بحيث توحي بما أودع من همسات وخلجات وجدانه"، ويستطرد صاحب (علم المعاني في الموروث البلاغي) مبيناً أن الأمر ليس بالسهولة وليس في الوقت ذاته بالقتامة ولا بالسوء ولا بالضيق الذي يريد الحداثيون أن يصموا البلاغة القديمة به[1]: "واستشفاف الدلالات والأغراض الفنية من لغة الأدب ليس أمراً سهلاً ميسوراً كما هو الحال في الدلالة الوضعية، بل هو يحتاج إلى قارئ ذي موهبة وذوق صقلتهما الدربة والتمرس بالنصوص، فذلك القارئ هو الذي يستطيع تأمل البناء الفني في تلك اللغة تأملاً واعياً، يتذوق به ما يشعه لديه من خواطر وما يفيض به من إيحاءات، وتلك الدلالات والأغراض الفنية للأسلوب الخبري في لغة الأدب لا تقع تحت حصر، فميادين الأدب جد فسيحة وخواطر الأدباء وأبعاد تجاربهم لا تحدها حدود، ولكن دارس الأدب يستطيع بذوقه الرهيف وخبراته اللغوية أن يستشف من كل أسلوب ما يوحي به إليه من أغراض ودلالات معتمداً في ذلك على السياق الذي يرد فيه، وقرائن الأحوال التي ينبثق في ظلالها"[2].

هذا هو .. أما تلك التي ينادى بها العاجزون عن الوصول إلى هذه المراتب العالية من المستوى الأدبي والفني ويجأرون لأجلها وبالبديل عنها بـ "دراسة فنون القول الأدبي المنظوم منها والمنثور فناً فناً، وما به قوام كل فن وحسنه، متخطين – على حد قولهم – الفنون القديمة من المقامة والرسالة والخطبة إلى الفنون الحديثة من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها"[3]، أو يعيبون القدماء بنحو قولهم: "وقد تصور البلاغيون أنهم بهذا المنهج قد استوعبوا مجال القول وفنونه"[4]، ويريدون هم – بدعوى التجديد في ميدان الدراسات البلاغية – أن يفردوا لما استسهلوه من تلك المعاني – التي يقصدون بها الفنون – بحوثاً مستقلة تودي بالبلاغة .. فما أقرب الشبه بينها وبين ذاك الذي أشار إليه الجاحظ في قوله: إن "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك"، وقد ساقه عبد القاهر وعلق عليه بقوله: "فأعلمك أن فضل الشعر بلفظه لا بمعناه، وأنه إذا عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة"[5].

٣ ـ الأسلوبية الحديثة والإبحار بعلم المعاني في تيه الحديث عن الوجدان وخلجات النفس ومظاهر الشعور الأخرى

يفيدنا ما سبق ذكره من أن التقديم للدرس البلاغي بأمور ليست من صميم ما اختُص به – على نحو ما اقترحه دعاة التجديد – من شأنه أن يُذهب معالم ومفاهيم البلاغة .. وأن الأجدى أن يقدم لها بأمور تتعلق بها وتمس الحاجة إلى تعلمها على نحو ما فعله متأخرو البلاغيين حين قدموا للدرس البلاغي – فيما جرت به عادتهم قبل الشروع في مباحث علم المعاني – بمقدمة موجزة في ضبط أصول البلاغة وعلومها، فجاءت محققة للغرض وبحيث لا يطاح بكيان ما صُدِّر بها لأجله، وأسموها (مقدمة في الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة، وانحصار علم البلاغة في علمي المعاني والبيان) .. وأنهم كانوا كذلك على حق حين أخرجوا (الفصاحة) من حيز البلاغة بعد أن

---

(1) يقول أمين الخولي: "إن الصورة في البلاغة القديمة" ضيقة الحدود قائمة على المعقول من منطق وفلسفة، فكانت صورة ذلك كله معروقة الوجه بادية العظم، شاحبة يسيرة الحظ من الحيوية والنضرة" .. فن القول ص ١٧٣ وينظر ص ٩٧ وغيرهما.

(2) علم المعاني في الموروث البلاغي .د. حسن طبل ص ٤٦، ٤٧.

(3) منهج التجديد د. أمين الخولي ص ٢٠١.

(4) البلاغة والأسلوبية د. محمد عبد المطلب ص ١٩٠.

(5) دلائل الإعجاز ص ٢٥٦.

أدركوا أنه لا يمكن أن يستغنى بالدلالة الفنية للفظة عن الدلالة الوضعية، ولا بالمعاني الثانوية للجملة أو الجمل أو الفقر عن المعاني الأصلية لألفاظها، ومن ثم لا يمكن الاستغناء بالبلاغة عن الفصاحة على اعتبار أن الأخيرة تمثل الإطار الخارجي للدرس البلاغي، والقالب الذي تُصَب فيه معاني المفردات والجمل الفنية والثانوية بعد الاطمئنان أولاً على تنقية هذه الجمل ومفرداتها مما قد يعلق بها من أخطاء نحوية أو صرفية أو ألفاظ وحشية أو سوقية .. وأن ارتباط (الفصاحة) بـ (البلاغة) – والحال كذلك – هو ارتباط الجزء بالكل وارتباط الفرع بالأصل، وما ذاك إلا لاشتمال البلاغة لما تشتمل عليه الفصاحة وزيادة .. وأن هذا الاتجاه في التقديم سديد ومحمود ويقتضيه العقل لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وليس من الحكمة أن نشرع في تفاصيل علم من العلوم قبل أن نقف على المراد به والغرض منه ووجه اشتماله على ما اندرج تحته.

يفيدنا كل ذلك في التأكيد على ثلاثة أمور هي – لمن ينشد التجديد في ميدان الدراسات البلاغية – من الأهمية بمكان:

أولها: عدم جدوى البديل – وهو تصدير البحث البلاغي بمقدمة نفسية تُعنَى بدراسة العواطف والخيال – وعدم صلاحيته، لأنه بإقحام مثل هذا في ميدان البحث البلاغي من شأنه أن يفسد الذوق ويشوه البلاغة على نحو ما حدث عندما أُقحمت الفلسفة وعلا صوت المنطق في ميدانها فيما مضى على يد السكاكي .. والحق أن الأمر أخطر من هذا بكثير، ذلك أن ما تم اقتراحه من قِبَل د. (أمين الخولي) في البند الخامس والسادس والسابع من مشروع التجديد[1]، ونادي فيه بضرورة أن "نضم إلى البلاغة مقدمات جديدة لابد منها لدراسة فنية تقوم على الإحساس بالجمال والتعبير عنه، دراسة تتصل بالحياة، وتحدِّث عن خلجات النفوس وأسرار القلوب، وتسعد آمال الجماعة وأمانيها وتغَنِّي نصرها وتغذِّي طموحها – كما هو شأن الفن الصحيح في الحياة الجادة – وبذلك: نضم إلى البلاغة مقدمة فنية، نعرِّف الدارس فيها بمعنى الفن وطبيعته ونشأته وأقسامه، متحرين في ذلك بيان الفن القولي .. ونضم إلى تلك البلاغة مقدمة نفسية لابد منها ما دام شأن الفن الأدبي ما أسلفنا، وما دمنا نريد وصل الفن بالحياة فنعرِّف الدارس بالقوى الإنسانية ذات الأثر في حياته الأدبية، والوجدان والذوق والخيال، وذكروا منها في أسباب الحذف والذكر والتقديم والتأخير اعتبارات نفسية محضة .. كما تلمُّ المقدمة النفسية بدراسة العواطف الإنسانية التي هي مادة المعاني الأدبية ومثار الفنون القولية نثراً وشعراً، وهي في الجملة دنيا الأدب والفنون كلها"[2] .. لم يكن ضماً للبلاغة ولا تجديداً لها، وإنما جاء – في حقيقة الأمر – ضمن خطة محكمة تتكون من ثلاثة محاور تأتي المقدمات تلك، في واحدة منها والآخران وهما (المبادئ) و(الأبحاث)[3]، أيضاً لا يمتان للبلاغة بأدنى صلة[4] .. وبظني أن هذا لا يعد تجديداً في ميدان الدراسات البلاغية بقدر ما هو تدمير لها واقتلاع للبلاغة من جذورها، وإذهاب بها إلى مكان سحيق، وفي ذلك ما فيه من الإضرار بالنص الأدبي.

ثانيها: أن البلاغة تتميز فيما تتميز به في أنها محصلة علوم متعددة، أتت لها بطريق العَرَض واشترط البلاغيون الإلمام بها لتحقيق أغراض بعينها يعود بعضها على المتكلم وذلك بتربية ملكة

---

(1) وهو – فيما تصوره عن "معالم التجديد البلاغي في إجمال"[مناهج التجديد ص ٢٠٢] – ما أقرته عليه مدرسة الحداثة بكلية الآداب بالجامعة المصرية لتطوير البحث والتلقي في ميدان الدراسات البلاغية.

(2) مناهج التجديد ص ٢٠١، ٢٠٢ وينظر ص ١٤٦، ٢٥١وفن القول ص٢٦٢، ٢٧٢.

(3) (المبادئ): لتعريفنا بـ (فن القول) وأهدافه وغايته وصلته بغيره من الدراسات،و(الأبحاث): التي تقوم على دراسة الكلمة والجملة والفقرة والقطعة والأسلوب،وقد سبق بيان هذا عرضاً إبان الحديث عن(أطروحات التجديد).

(4) ينظر البلاغة العربية بين التقليد والتجديد ص ١٧٧وفن القول ص ٢٧١ وما بعدهما.

التذوق، ويعود بعضها الآخر على الكلام[1] لارتفاع شأنه في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب المسمى لدى عبد القاهر بـ (النظم)[2]، وبعضها الثالث على ما به "تسير حركة الكلام وفق حال المخاطب، إذ لكل مخاطب ما يناسبه من الأساليب، وخطاب العالم يختلف عن خطاب الجاهل وخطاب الذكي يختلف عن خطاب الغبي"[3]، ولكل مقام مقال ولكل حال مقتضاه .. وهذه العلوم التي اشترطها البلاغيون لتكون روافد تصب في خدمة البلاغة العربية لم تدخل في صميم علوم البلاغة لأنها لا تقصد لذاتها وإن توقفت علوم البلاغة عليها .. ومن هذا المنطلق فإن أي طغيان لأي من علوم الفلسفة أو المنطق أو علم النفس أو حتى النحو أو الأدب، من شأنه أن يخرج الدرس البلاغي عن طبيعته .. والغريب في الأمر أن ما أخذه الحداثيون على القدامى بشأن تغليب الجانب الفلسفي على روح البلاغة الصافية فيما مضى وأهاج حفيظتهم، وقعوا هم فيه حين غلبوا الجانب النفسي في ميدان الدراسات البلاغية وطالبوا – على نحو ما مر بنا – بمقدمات تخصه .. والأغرب هو تهوينهم من شأن مراعاة السابقين لهذا الجانب – على الرغم من الاعتراف لهم بعدم إغفالهم ذلك وعلى الرغم من شدة نشدانهم هم إياه وكثرة مناداتهم به – وكأن تهوينهم لذلك هو لمجرد التهوين، فقد جاء منهم على طريقة الذم بما يشبه المدح: "فالقدماء – بشهادتهم – يفرقون بين الذكي والغبي والمعاند، كما يتكلمون عن رغبات المتكلم واتجاه نفسه لما يتحدث عنه من حب أو كره، وتلذذ أو تألم وما لكل من أثر في القول، تلك بلاغة الكلام .. أما بلاغة المتكلم فهم لا يعرِّفونها إلا بأمر نفسي محض .. وليس هذا فقط مظهر وصلهم البلاغة بالأبحاث النفسية عندهم، بل هم يعرضون لذلك كثيراً حين يتحدثون خلال أبواب البلاغة عن الأحوال النفسية وما تقتضيه وما يلائمها من مظاهر كلامية وخصائص أسلوبية .. وهم يتكلمون عن الأمزجة الإنسانية في الفصائل البشرية المختلفة وأثرها في صوغ العبارات"[4] .. فلا تـــدري – يا سبحان الله – ما يريده الحداثيون في مراعاة الجانب النفسي لدى القدماء في ميدان الدراسات البلاغية أكثر من هذا؟.

ثالثها: أن البلاغة القديمة راعت الجانب النفسي بدقة متناهية، حين أخذت منه بالقدر الذي أخذت من كل فن، أعني أخذت منه ما يخصها ويؤدي مهمتها وبما يمكنها من الإفادة من كلٍّ والاستعانة به .. وراح مصنفوها يتفننون في كيفية توظيف سائر العلوم دون تغييم أو تغييب أو تعكير على أي من مباحثها أو مسائلها أو علومها .. ونرى أن الأمر على العكس من ذلك تماماً لدى الحداثيين، وهنا يكمن الفرق بين التجديد في القديم – وإن ساء أحياناً – والتجديد لدى بعض المعاصرين.

وإليك بالدليل ما يوضح ذلك ويؤكده، ويفصح عنه ويكشفه:

لقد امتد حديث د. (أمين الخولي) – وهو يتبنى منهجاً لتجديد البلاغة – عن (البلاغة وعلم النفس) طوال صفحات بلغت ثمان وعشرين صفحة[5] .. وذلك بعد مدخل جعله في (أثر الفلسفة في البلاغة العربية) كالتمهيد لما يبغي الوصول إليه، جاء فيما يقارب ما مضى من عدد الصفحات وذكر فيها – على سبيل الذم ضمن ما ذكر – "أن البلاغة في جميع أدوارها عاشت في كنف رجال الفلسفة وتحت رعايتهم" وراح ينابز الزمخشري والسكاكي بالألقاب[6]، ويبدئ ويعيد في أن البلاغة على طول الخط، في نشأتها وتدرجها ودائرة بحثها وغايتها كانت قائمة على الفلسفة ومتأثرة بها حتى النخاع .. ليطلق لنفسه العنان – وتحت عناوين مختلفة من عيِّنة (البلاغة وعلم النفس) و(صلة

---

(1) وذلك بعد تمييز فصيحه من معيبه، وبعد الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وعن التعقيد المعنوي.

(2) ينظر الإيضاح مع البغية ١/ ٢١، ٢٤.

(3) الحركة الأسلوبية د. عبد الرازق فضل وينظر الإيضاح بشرح البغية١/ ٢١.

(4) مناهج التجديد ص ١٣٨ وما بعدها.

(5) من ١٣٥: ١٦٣ من مناهج التجديد.

(6) ينظر مناهج التجديد ص١١١.

قديمة) و(الإعجاز النفسي) – في أن يدير كلامه حول كيف أن البلاغة "اتصلت قديماً بعلم النفس اتصالاً وثيقاً"، وكيف أن نظرته المحدثة في صلة الأدب بالحياة أوصلته إلى أن يوثق "أصل البلاغة – بل دراسات الأدب جميعاً – بعلم النفس"، ويبين أن "من سبيل ذلك أن نروض المتأدبين على المشاهد النفسية، وأن نجعل من مقدمات البلاغة مقدمة نفسية خاصة، وأن نثقف المتأدب بـ (علم النفس الأدبي)"، ويؤكد كيف كان "لهذا الوصل الوثيق بين البلاغة وعلم النفس أثر قوي في إصلاح الحياة الأدبية المصرية، وفي إصلاح دراسة البلاغة، وفي تغيير الآراء في مسائل أدبية سياسية كإعجاز القرآن وتعليله، ثم في تغيير أساس نظرنا في تفسير القرآن"[1].

ويؤديه شغفه بمزج البلاغة بالمنهج النفسي – على هذا النحو السادر – لأن يجعل من هذا المنهج مرجعاً للحكم على بلاغة الكلام من عدمه فيقول: "لكنا – وقد رأينا الصلة الفعلية بين ما تعرض له البلاغة وبين الشئون النفسية – نستطيع إذا أيدتنا تلك المعرفة النفسية، أن ننظر في الاعتبارات البلاغية نظراً صحيحاً لنقبل منها ما نقبل على أساس واضح ونرفض منها ما نرفض على فكرة صحيحة، فنخلّص دراسة البلاغة من تلك التعليلات الركيكة المزيفة التي لم تعتمد إلا على نظر عقلي بعيد عن روح الفن، أو اعتمدت من ذلك على باطل لا صحة له ولا قوة فيه"[2] .. بل وبلغ به الأمر لأن يُخضع القرآن لمقاييس منهجه هذا فيقول: "فبالأمور النفسية لا غير يعلل إيجازه وإطنابه، وتوكيده وإشارته، وإجماله وتفصيله، وتكراره وإطالته، وتقسيمه وتفصيله، وترتيبه ومناسباته، وما قام من تعليل هذه الأشياء وغيرها على ذلك الأصل فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتمحل أو هو أشبه شيء به"[3] .. فكان أن انتقل من النقيض إلى النقيض[4] وعالج الخطأ بخطأ أفدح منه.

الأمر الذي دعا أصحاب الأقلام المتوضئة لأن يحذروا من مغبة أن يعصف غلبة الحديث عن النفس في ميدان الدراسات البلاغية برونق البلاغة ويُفقدها روحها ولبابها، وأن يبعدنا بها وعنها عن نبعها الصافي ويجعلنا نذوب في بحار ودهاليز وترهات وأباطيل الغرب ونظرياته في علم النفس والجمال – على نحو ما رأينا ذلك على لسان كبار النقاد المعاصرين وفي نصوص كلامهم فيه، وذلك إبان الحديث في المبحث الأول عن (أطروحات تجديد الدرس البلاغي المعاصرة في ميزان النقد العلمي)، وكان من بين هؤلاء د. (محمد مندور) و(سيد قطب) – وفي هذا الشأن يقول أ. د. (فتحي فريد): "إن المغالاة في تقدير الاتجاه النفسي في دراسة البلاغة لا يجعلها تحقق أهدافها الدينية والأدبية والنقدية، ومن أوضح المثل على هذا دروس البلاغة التي تقدم الآن لطلاب اللغة العربية في كثير من كليات الآداب والتربية على منهج (أمين الخولي)، فإنها في عمومها لا تحقق أهداف البلاغة، وهي إن أفادت الطلاب في معرفة أنواع الأساليب ومذاهب النقد وعناصر الشعر وغير ذلك، فليس لها من فائدة محققة في كيفية الموازنة بين الأساليب وتمييز الجيد من

([1]) مناهج التجديد ص ١٣٥.

([2]) مناهج التجديد ص ١٤٨، ولاحظ، كيف يسمي الوجوه والنكات البلاغية تعليلات ركيكة ومزيفة.

([3]) مناهج التجديد ص ١٥٤.

([4]) فعل ذلك مع غيره على ما هو واضح هنا، وفعله مع نفسه حين اعترف تحت ما عنون له بـ (الفن والفلسفة) بأننا "على أساس هذا التقدير للفن القولي ننظر إلى دراسة الأدب وعلومه ونتصدى للتجديد في تلك الدراسة ومنهجها وطريقة التأليف فيها، وهو أساس يخالف وجهة النظر التي سادت في أدهر طويلة من حياة العربية ولاسيما العهود الإسلامية"، ويردف – على سبيل المدح هذه المرة – قائلاً: "والفن القولي على هذا تصلُه بالفلسفة وشائج قوية وقرابة متينة إذ الفن والفلسفة يخدمان معاً فكرة الجمال والجميل"، إلى آخر ما ذكره في كتابه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب) [ص ١٤٣]، وهو في كل هذا وعلى مدى ما كتب، من أشد الناس فتكاً بالسكاكي لنفس هذه الوشائج التي كانت تربطه بالفلسفة، ولا ندري في النهاية ماذا يريد الرجل بالضبط، وسواء أمكننا أن نناقض بين نظرتيه أو توفق، فالمحصلة في النهاية واحدة، وهي: أن الإغراق في الحديث عن النفس – بهذا الشكل – مبحر بالبلاغة في تيه الحديث عن خلجات النفس ومظاهر الشعور الأخرى.

الرديء وإدراك الأسرار البلاغية لكلام الله وهي أهم ما كانت من أجله الدراسات البلاغية"[1] .. وهو عينه الذي يقول في كتابه (المدخل) في إنصاف: "لا نكون مبالغين إذا ما قررنا أن ما بين البلاغة وعلم النفس ليس مجرد علاقة، فإن البلاغي الذي لا يراعي ملائمة كلامه لأحوال السامعين لا يفترق عن الطبيب النفسي الذي يريح نفسية مريضه بالعلاج الذي يناسب داءه، ولا يستطيع المتكلم أن يبلغ بكلامه قرارة السامعين إلا إذا وقف على الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة لهم، وراعي ذلك في صوغ كلامه على قوالب المقتضيات المناسبة ولهذه الأحوال، لذا كان إلقاء الكلام من غير دراسة لأنفس المخاطبين عيَّاً وجهلاً".. ثم يقول: "ومن ينعم النظر والتأمل في معظم فنون بلاغتنا العربية يتبين علاقتها الواضحة بالنفس مما يؤكد أن البلاغة بحكم موضوعها لا يمكن أن تبعد عن النفس"[2] .. ويتأكد معه أن لا جديد لدى المحدثين سوى الإفراط المخل والتضارب المسف.

ولقد كانت لفضيلة أ. د / إبراهيم الخولي – الأزهري الألمعي – في هذا الصدد دراسة جادة مستفيضة جاءت تحت عنوان (الجانب النفسي من التفكير البلاغي عند عبد القاهر)، كشفت عن هذا القدر البعيد عن الإفراط والتفريط، كم وددت لو اطلع عليها من يَشغله هذا الأمر، إذن لعلم كيف تكون الحكمة في وضع الأمور في نصابها.

يقول فضيلته في بداية هذه الدراسة: وثمة "احتياط يفرض نفسه: فالجانب النفسي الذي نقصد إليه هنا شيء مختلف عن المنهج النفسي الذي يذكر في الدراسات الأدبية والنقدية، وهو مختلف أيضاً عن النظريات النقدية التي قامت على أصول نفسية، وهو كذلك غير الدراسات النقدية التحليلية التي تتخذ من نتاج الشعراء والأدباء مصدراً مباشراً تدرس من خلاله حياتهم وتحلل شخصياتهم" .. ولمزيد من تحديد الميدان الذي تتحرك فيه الدراسات البلاغية فيما يخص هذا الجانب الخطير الذي فيه زلفت الأقدام وزلت الأقلام وضلت الأفهام، يزيد – حفظه الله – الأمر توضيحاً من خلال نموذج خيرٍ صالحٍ للاحتذاء فيقول: "ما نعنيه بالجانب النفسي هنا: هو محاولة (عبد القاهر) أن يَرُدَّ الأسرار البلاغية أو البيانية – التي هي مناط المزية ومظنتها وإليها مرجع ما يكون من حسن الكلام وجودته – إلى أصول نفسية يفسرها ويعللها على أساس منها .. هو تفسير ما يجده متلقِي الكلام في نفسه من أثر بأسبابٍ وعوامل نفسية، وربط ما يصطنعه مُنشئ القول من وسائل وأدوات بيانية بهذه الأسباب والعوامل النفسية .. أي هو تفسير لتأثير الكلام، فلا يكتفي بالكشف عن الخصائص والأسرار البيانية التي تقف عندها البلاغة عادة، ولكنه يتجاوز ذلك ليصل إلى الأسباب التي هَيَّأت لهذه الخصائص أن تُحدث في نفس المخاطب أو المتلقي من الآثار ما يشبه أثر السحر في بعض الأحيان .. وعبد القاهر في هذا الجانب من تفكيره البلاغي يبدو – كعادته – عميق النظرة واسع الأفق، يَحكم فكره منهج صارم، فلا تغيم عنده الرؤية ولا تختلط عليه المسائل.

فهو أولاً: نافذ البصيرة في فهم النفس الإنسانية وما جبلت عليه، بقدر ما هو نافذ في فهم البيان وتذوقه وبقدر ما هو مكتمل الأداة – منهجاً ووسائل – في تحليل الأدب وتفسيره ومقارنته والحكم عليه، وقد مكن لهذا كله في نفسه معاناته لقضية (الإعجاز) التي ملكت عليه حسه وعقله ووجدانه، وشغل بها عمره فضلاً عن ثقافاته الواسعة المتشعبة.

وهو ثانياً: يدري كيف يوظف ما يعلم من حقائق النفس – وليس علم النفس – توظيفاً صحيحاً، يجعلها خيوطاً مستقرة في المواضع الملائمة من نسيج تفكيره البلاغي، وعنصراً من عناصره ذائباً فيها، لتُكَوِّن معاً مزاجاً صالحاً، يفسده غياب أي منها، وينال من قيمته فصله عنها.

([1]) المدخل. د. فتحي فريد ص ١١.
([2]) المدخل ٥٤، ٥٥.

وهو ثالثاً: لا يسقط فيما لم ينج منه كثيرون من قدامى ومحدثين، حين أقحموا على البلاغة والتفكير البلاغي علوماً أخرى، وحين خاضوا في البلاغة خوضاً داخَل بين مجالات البحث واصطنع من المناهج ما لا يلاءم التفكير البلاغي، وفي شروح المفتاح والتلخيص أمثلة صارخة لهذا الخلط في القديم، وكثير مما ذكره صاحب (فن القول) وهو يدعو لتجديد البلاغة يصلح مثالاً لهذا الخلط في فكر المحدثين، ومقالات صاحب (البلاغة المعاصرة) مثال صارخ أيضاً لهذا التخليط"[1] ..

ويمضي بنا فضيلته في رياض ما ذكر عبد القاهر في مجال المعالجة النفسية للنصوص ليرينا كيف تورد الإبل، ولينتهي بنا إلى نتيجة قدَّم بها في كتابه مؤداها "أن من تناول هذا الجانب النفسي عرضة لأن يتأثر – دون أن يقصد – بمقولات علم النفس الحديث وأن يستخدم مفاهيمه ومصطلحاته، ويسقط هذا كله على (فكْر) يقع في إطار غير الإطار، وينتمي لزمن غير الزمن، ويخضع لمنهج غير المنهج، ويتغيَّ غاية غير الغاية"[2]، وهذا هو.

الأمر الذي يتأكد معه أن ما اقترحه الحداثيون وألزموا به أبناء جمهوريتنا ومَا وراءها، لا يعدُّ جديداً ولم يلق – في الوقت ذاته – لدى العقلاء من سادات البشر قبولاً، وأن له أصلاً لدى القدامى وكذا عقلاء المحدثين الذين لم يغفلوا من هذا الجانب الخدمي لوظيفة البلاغة، ما كان منه معقولاً .. لكونهم الذين أخذوا منه بقدْرٍ مكن الدرس البلاغي من أن يبلغ مراده ويحقق هدفه، وبقدْرٍ أصلح البلاغة ولم يفسدها أو يسعى لتدميرها.

وليعذرني القارئ أن كنت قد أطلت من الأخذ من هذا الكتاب الصغير الحجم العظيم القدر، فالأمر جد خطير والمصاب فيه جلل، والبلاغة بأصولها ومبادئها وأهدافها تكاد بما يكيد لها الكائدون – لولا فضل الله ورحمته – أن تضيع سدى، وما ذاك إلا بسبب الشطط والإسراف والمبالغة وعدم اتباع الحكمة في وضع الأمور في أماكنها الصحيحة، ونحن وأولئك في مسيس الحاجة لاستيعاب هذا الكلام الفائت الذي يمثل في ميدان الدراسات البلاغية قواعد عامة يجب مراعاتها إن كنا نريد تجديداً يفيدها ولا يفسدها وينفعها ولا يضرها.

******

(1) الجانب النفسي لإبراهيم الخولي ص ٥: ٧.
(2) الجانب النفسي ص جـ.

المبحث الثالث

الأسلوبية واتخاذ علم المعاني تكأة للتآمر على الدرس البلاغي وغايته

أولاً: الأسلوبية الحديثة وتشويه علم المعاني بإعادة تقسيمه – مع سائر علوم البلاغة الأخرى – من جديد لأقسام بعيدة عن النظرة العلمية

وتجدر الإشارة إلى أن تهوين ونكران الحداثيين لصنيع القدماء، واتهامهم إياهم بقَصْر "البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أدائها للمعاني الجزئية بالجملة الواحدة، أو الجمل المتصلة في معنى واحد، وأنهم لم يجاوزا ذلك"، ومن أن ذلك ظهر حتى في تعريفهم لعلوم البلاغة حين ذكروا أن "(علم المعاني): يُعرف به أحوال اللفظ العربي من حيث مطابقته لمقتضى الحال، و(علم البيان) يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة، وأرادوا باللفظ العربي أحوال الجملة وأحوال أجزائها، وبالمعنى: تشبيه أو مجاز أو استعارة أو كناية لا غير، أما المعاني الأدبية والأغراض الفنية .. فلم ينظروا فيها"[1] – وهو ما أفضنا في الرد على بعضه.

أقول: إن اتهامهم هذا المنقوض والقائم على غير أساس، أوصلهم إلى رمي القدامى بأنه كانوا "يديرون هذا التقسيم – تقسيم البلاغة إلى (معاني) و(بيان) و(بديع) – على اعتبارات ضعيفة"[2]، وأنه لأجل ذا يجب أن تتسع – بمخيلتهم – دائرة البحث البلاغي لتشمل فيما تشمل إعادة تقسيم علوم البلاغة على غير الأسس والمبادئ التي قام عليها[3]، بعد أن "صار التقسيم القديم للبلاغة إلى (المعاني) و(البيان) و(البديع) لا أساس له ولا غَنَاء فيه"[4]، كما يجب تخلية الدرس البلاغي من كل ما يعوق هذه التوسعة، وأن "من التخلية – برأيهم – إلغاء تقسيمهم الثلاثي لفروع البلاغة جملة: (المعاني) و(البيان) و(البديع)"[5]، وبذا يتم النظر "في تنظيم تلك المباحث كلها على أساس وملحظ آخر خليق بالصورة الجميلة والمنهج الصحيح .. وكل أولئك لا يكون إلا بإلغاء هذا التقسيم الشائع وإخلاء المجال منه، فنتمكن بعده من الزيادة اللازمة والتنظيم المطلوب"[6] .. "والمدهش – ومصدر التعجب هنا أ.د محمد أبو موسى – أن هذا الهزل الفارغ يجد من يقبلونه ويكررونه بدلاً من أن يردوه أو يسكتوا عنه"، يقول: "وأنا لم أرده قبل ذلك لأنه لا يرضاه إلا من لا قيمة لرضاه، ثم اضطررت إلى أن أنبه بهذا الكلام الظاهر، تبرئة للذمة أمام هذا الجيل الذي تدمره أقلام لا تدري مغبة ما تكتب"[7] .. فقد راح آحادهم – من قبل ومن بعد، وتحت حجج لا تقل وهناً ولا وهياً عما أسلفنا – يُعمل عقله ويكد فكره ويتعب ذهنه في تقسيمات أخرى يمكن حصر علوم البلاغة فيها ودرجها تحتها، وهي بحق وفي جملتها، لا تمت إلى البلاغة بأدنى صلة.

فالدكتور أحمد الشايب كان يرى أن البلاغة يمكن حصرها في موضوعين رئيسين هما: (الأسلوب) و(الفنون الأدبية) .. ففي الأسلوب تدرس (الكلمة) و(الجملة) و(الصورة) و(الفقرة)

([1]) مناهج التجديد ص ٢٠١.

([2]) فن القول لأمين الخولي س ٢٣٨.

([3]) ومما بعث على العجب أنهم مع حملتهم الشعواء تلك على البلاغة القديمة بإلغاء علومها وتقسيماتها وأصولها وأسسها، تراهم يتمدحون الخطيب القزويني باعتباره "أثراً لحياته في البيئة المصرية، الظاهرة الميل إلى الطريقة الأدبية في دراسة البلاغة"[تجديد ص ١٨٣]، وكتاب (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) لأنه "كتاب مصري جدير بالعناية .. ويستحق الدراسة الصحيحة والعناية الحقة .. ويغلب عليه النزعة الأدبية في تناوله وبحثه"[مناهج التجديد ص ١٨٧، ١٨٩] .. وسؤالنا: لماذا لا يوصون بتدريسهما إذاً بدل ما يشغبون به على بلاغتهما القديمة، أم أنها دعوى الجاهلية والعصبية لما هو مصري؟.

([4]) مناهج التجديد ص ٢١٠.

([5]) فن القول ص ٢٣٨.

([6]) فن القول ص ٢٣٩.

([7]) مقدمة خصائص التراكيب د. أبو موسى ط .السادسة ص ز.

و(العبارة)، و(علم المعاني) عنده يدخل في بحث الجملة، و(علم البيان) وأغلب (علم البديع) يدخل في باب الصورة .. أما الفنون الأدبية فتشمل الفقرة والعبارة في سائر فنون الأدب من قصة ومقالة ووصف ورسالة ومناظرة وتاريخ[١] .. "وجاء أمين الخولي فألف كتابه (فن القول) محاولة منه لمنهج بلاغي جديد، و(فن القول) عنده هو البلاغة بلغة العلماء القدامى والمحدثين، وفي هذا الكتاب يدعو إلى دراسة فن القول وعلاقته بعلم الفلسفة والجمال والنفس، وتبدأ الدراسة بالكلمة ثم بالجملة ثم الفقرة، ثم تدرس صور التعبير التي قسمها إلى قسمين:

١- صور الإيضاح المعلن وهي: التشبيه، الاستعارة، المجاز، الكناية، التهكم، التجاهل، الفكاهة.

٢- صور التعبير المظللة من رمز وإيماء وإلغاز وتورية واستخدام واتساع .. ثم تدرس البلاغة في القطعة الأدبية ثم البلاغة في الأساليب الفنية في الأدب"[٢].

يقول بعض أهل الاختصاص تعليقاً على هذا السخف وأقول معه: "نحن محتاجون إلى أن نتخلى عن عقولنا لنقتنع بأن هذا تجديد وتطوير، وأن علم الأسلوب المنتزع من غير العربية، يمكن أن يكون أداة المفسر والفقيه والأصولي وعالم العقائد، وأن نبسط سلطانه أيضاً على علوم القرآن"[٣].

ومن المهم أن نكشف عن أن مشكلة أولئك ومن حجل بقيدهم، هو أنهم حكموا على البلاغة من خلال قراءة بعض كتبها التي عنيت بالتقعيد على حساب التحليل، ومن خلال نظرتهم الضيقة أو التي أرادوا لها أن تضيق بشكل أو بآخر للدلالات الفنية المفادة من الدرس البلاغي على الرغم من اتساعها في حقيقة الأمر .. فترى بعضهم يهون من شأن الاعتبارات المناسبة وخصوصيات الجمل والفِقَر التي اتسع لها نطاق البحث البلاغي على نحو ما رأينا إبان حديثنا عن (مكونات اللفظ العربي) فيسميها (معاني جزئية)، ويتهم البلاغيين بأنهم "قصروا البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أدائها للمعاني الجزئية بالجملة الواحدة أو الجمل المتصلة في معنى واحد"[٤]، وهذا اتهام لهم وللبلاغة بالباطل والكذب والبهتان .. أو يفهم كلامهم على غير مراده، فيحمل مرادهم بـ "المعنى – الوارد في تعريفهم البيان (علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة) على أنه – هو تشبيه أو استعارة أو كناية لا غير، أما المعاني الأدبية والأغراض الفنية .. فلم ينظروا فيها"[٥]، وهذا من ضيق العطن، إذ فيه ما فيه من الخلط بين طرق الإيراد التي تأتي عليها أساليب النصوص وبين الخصوصيات التي تكتنفها هذه الأساليب .. أو يحمِّل كلامهم ما لا يحتمل، كأن يُظن أن كل ما ذكروه لا يعدو أن يكون تناولاً للصورة الإفرادية، أما التركيبية التي يجب التوسع فيها فهي تلك التي تشمل الفنون التشكيلية من نحت وعمارة وموسيقى وتصوير وسواها – مما يشبه أن يكون لدى البلاغيين في مقدمة حديثهم عن البيان مندرجاً تحت أنواع الدلالات غير المعتبرة في الدرس البلاغي – إذ يستعان بها "جميعاً في إظهار الجميل"، وبها تكتمل "الصورة التي نرى بها البلاغة مصنفة مع غيرها من علوم العربية"، وبها كذلك "يبدو (فن القول) بين

---

(١) ينظر الأسلوب ص ١: ٣٧، ولا يختلف عن ذلك كثيراً ما ذكره محمد كامل جمعه في كتاب يحمل نفس العنوان (الأسلوب) وهو لا يعدو أن يكون كتاباً في طريقة كتابة البحوث الأدبية .. ومحمد عبد المطلب الذي بنى كتابه (البلاغة والأسلوبية) على هذه الفكرة فراح يدرج – ولنفس الأسباب – في الأسلوب: (المعاني) و(البيان) لاتصال الأول "بدراسة الأسلوب من حيث ما يعرض للجملة"، والثاني بدراسته "من حيث ما يعرض للمفرد" ص ١٩٤، وطالب بالتوسع في الدرس البلاغي "حتى بالنسبة لتلك الفنون الجديدة الوافدة .. باعتبارها إمكانات لغوية من الممكن رصدها" ص٢٦٩ .. وينادي العلايلي بأن يقتصر البيان على بحوث التشبيه والحقيقة والمجاز والكناية، وعلم المعاني والبديع على الأدب .. وهكذا راح كل واحد يفصل البلاغة ويقسمها حسب مزاجه دون ما ضابط ولا رابط، وكأنها أضحت كلأ مباحاً يستبيحه كل صاحب هوى متبع ودنيا مؤثرة ورأي قد أعجب به.

(٢) البلاغة العربية بين التقليد والتجديد د. خفاجي وشرف ص ١٥ خفاجي، وينظر الأسلوب ٥، ٣٧ وما بعدهما.

(٣) مقدمة خصائص التراكيب د. أبو موسى ط .السادسة ص ز.

(٤) مناهج التجديد ص ٢٠١.

(٥) مناهج التجديد ص ٢٠١.

مجموعة الفنون الجميلة صنواً للموسيقى – على حرمتها – وشقيقاً لـ (فن الصوت)"[١] .. وكان هذا المزيج من (الكذب عليهم) و(الخطأ في فهم كلامهم) و(حمل كلامهم على غير وجهه)، هو دافعهم للهجوم على القدماء والمطالبة بتجديد البلاغة القديمة – حسب تسميتهم – على هذا النحو الانقلابي.

وهنا نقرر حقيقة أنه على نحو ما كان من الضروري بمكان – فيما ولي مرحلة عبد القاهر – العمل على جمع شتات المسائل التي تناولها عبد القاهر تحت مسمى علوم البلاغة والتي كانت مبثوثة في كتب السابقين والوقوف على وجه ذلك، بغية جعلها في قواعد يسهل تعلمها والإحاطة بمباحثها وأبوابها .. كان من الضروري أيضاً – حسب ما جبل الله عليه خلقه وسنه لهم في التطوير والتجديد – أن تقسم البلاغة على هذا النحو الذي وصل إلينا .. والذين يتهمون البلاغة بضيق الأفق وبضعف الاعتبارات التي قسمت البلاغة على أساسها، لو تدبروا حقيقة الأمر وما آل إليه حال البلاغة في تقسيمها لثلاثة علوم لاتسعت صدروهم ولاستطاعوا أن يوقفوا أنفسهم على مكامن الخطأ في منهجهم التجديدي في حيدة وإنصاف، ولَمَا أقدموا بالتالي على مطالبتهم بتخليتها من أقسام السابقين أو تحليتها بأقسامهم .. ولندع الفرصة الآن لما دبجه المخلصون المحدثون من غير الحداثيين في تتبع ذلك وكيف جاء، وكيف يكون المخرج منه والتصرف حياله؟!.

بعد أن يوضح الدكتور إبراهيم الخولي أن "قضية البلاغة وموضوعها في تصور عبد القاهر، هو (حسن الدلالة) أو (المزية) التي بها يتفاضل الكلام"[٢]، وأن النظم مناط هذه المزية[٣] وعامل مشترك بين النحو والبلاغة[٤]، وأن مقتضى الحال يتسع ليشمل ما لا نهاية له من معاني النحو المتآخية فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام، أو المرتبطة بالمعاني الثانوية أو بخصوصيات الكلم وما يتخلله من الأحوال الداعية إليها، وأنه لذلك جعله محور كتابيه (الدلائل) و(الأسرار) اللذين خليا تماماً من الحديث عن الدلالة الوضعية لخلوها من المزية وإن كانت صحتها قيداً في البلاغة وتمييز الكلام الفصيح من غيره .. يشير – أمد الله لنا في عمره – إلى أن دائرة هذا النظم تتسع أكثر لتشمل – هذه المرة إلى جانب ما اختُص بعلم المعاني أعني <u>(المعاني الثانوية)</u> وهو اللفظ الملتبس بتآخي معاني النحو – اللفظ الذي هو "من المعنى بسبيل"[٥]، والداخل فيه ألوان البيان لدلالة اللفظ فيه على (معنى معناه)، وألوان البديع لكونها لا تتم إلا بنصرة المعنى[٦].

وهنا ينقل خولي البلاغة الأصيلة عن عبد القاهر كلاماً غاية في الأهمية، أود أن يتسع له صدر هذا البحث لنتبع القاعدة بالمثال ولنقدر جهد الشيخ عبد القاهر وهو يمهد لتقسيمات البلاغة على النحو الذي وصلنا، ونقدر مع ذلك سعة أفق وعمق تفكير من ولي عبد القاهر من أهل النظر من متأخري البلاغيين .. يقول عبد القاهر: "اعلم أن الكلام الفصيح ينقسم قسمين:

قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم، فالقسم الأول: الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة، و<u>كل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر</u>، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية، فإذا قلت: (هو كثير رماد القدر)، كان له موقع وحظ من القبول لا يكون إذا قلت: هو كثير القرى والضيافة)، وكذا إذا قلت: (هو طويل النجاد) كان له تأثير في

([١]) فن القول ص ٨٨، ٨٢، ٩٠ وينظر ٨١ وما بعدها.
([٢]) مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث د. إبراهيم الخولي ص ١٨٤.
([٣]) السابق ص ١٩١ وما بعدها.
([٤]) السابق ٢١٢ وما بعدها.
([٥]) مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث د. إبراهيم الخولي ص ٢٦١.
([٦]) ينظر الدلائل ص ٨، ١٤.

النفس لا يكون إذا قلت: (هو طويل القامة)، وكذا إذا قلت: (رأيت أسداً) كان له مزية لا تكون إذا قلت: (رأيت رجلاً يشبه الأسد ويساويه في الشجاعة)، وكذلك إذا قلت: (أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى) كان له موقع لا يكون إذا قلت: (أراك تتردد في الذي دعوتك إليه كمن يقول: أخرُجُ ولا أخرجُ، فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى)، وكذلك إذا قلت: (ألقى حبله على غاربه) كان له مأخذ من القلب لا يكون إذا قلت: (هو كالبعير الذي يُلقى حبله على غاربه[1] حتى يرعى كيف يشاء ويذهب حيث يريد)، لا يجهل المزية فيه إلا عديم الحس ميت النفس وإلا من لا يُكلم، لأنه من مبادئ المعرفة التي من عدمها لم يكن للكلام معه معنى .. وهكذا السبيل في كل كناية .. والاستعارة، في هذه القضية"[2] .. "وأما القسم الذي تعزى فيه إلى (النظم) فـ .. هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل بقوانينه وأصوله"[3].

وعبد القاهر بهذه التوسعة في ذكر المعاني التي لا تقع تحت حصر، يضع لنا ضابطاً في كيفية المقارنة التي يقتضيها الدرس البلاغي بعد أن ينظم تيك المعاني في عِقدها الذي لا يصلح إلا لها، فيوضح أن المقارنة إنما تكون بين المعاني الغفلة ذوات الدلالات الوضعية وبين المعاني المستقاة منها والمختبئة وراء معانيها الأصلية التي لا يقوى عليها أو على التعامل معها إلا "من له طبع إذا قدحته[4] وَرِيَ، وقلب إذا أريته رأى".. خلافاً لمن يحصرونها – على طريقة الموازنات في ميدان الدراسات الأدبية أو النقدية – في مجرد "سوق المؤلف قطعتين أدبيتين هما وصف لشيء واحد، وقد صيغتا من كلمات واحدة، ثم يقول: إن التفريق بين هاتين القطعتين ليس بشيء .. إلخ)"، ثم يدرجون هذا البله تحت مسمى: (صورة البلاغة عند المحدثين)[5] .. ولا يكتف عبد القاهر بهذا، بل يضع أيدينا مرة أخرى على خيط رفيع يمثل حداً فاصلاً – في إدراك (حسن الدلالة) أو (المزية) – ألفت النظر إليه د. إبراهيم الخولي، وأوضح – وفق كلام عبد القاهر – كيف أن ذلك يتحقق في النظم بأحد ثلاث طرق:

<u>أولها: عن طريق ألفاظ</u> أفادت من خلال سياقاتها معان لم تفهم من ظاهر هذه الألفاظ، فهذا الطريق وإن ظهر لبادئ الرأي أن المزية فيه للفظ فقط أو هو في مقدمة ما ينظر إليه كذلك، إلا أنها تحمل في طياتها معان، "ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: (هو كثير رماد القدر) وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: (إنه كلام قد جاءوا عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، ليس إلا أنهم أرادوا أن يدُلُّوا بكثرة الرماد على أنه تُنصَب له القدور الكثيرة ويطبخ فيها للقرى والضيفان، وذلك لأنه إذا كثر الطبخ كثر إحراق الحطب تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة) .. وهكذا السبيل في كل ما كان كناية .. وإذا قد عرفت في الكناية فالاستعارة، في هذه القضية"[6]، وكذا "كل ما فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر"[7] هو من هذا الباب .. وفيه تجد "(المعنى) و(معنى المعنى)، وتعني بـ (المعنى): المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير

([1]) الغارب: هو الكاهل من ذي الخف وهو ما بين السنام والعنق.
([2]) الدلائل ص٤٢٩: ٤٣١ وعلى ما يفيده كلامه هنا وما تلاه، فما "الإمتاع بالتعبير عن الإحساس بالجمال أو بالتذوق الناقد لروائع الأداء الفني المترجم عن الشعور بالحسن"[فن القول ص ٢٦٥] – أعني الغاية التي يهدف إليها الحداثيون على أنقاض البلاغة – إلا شيئاً ضئيلاً وأثراً ظاهراً مما ألفت النظر إليه.
([3]) الدلائل ص ٤٥٢،ويجعل عبد القاهر في مواضع أخرى من دلائله القسمة ثلاثية ليضيف إلى ما سبق: "ما أتاه الحسن من الجهتين" ينظر الدلائل ٩٩، ٤٥٣ وما بعدهما، كما ينظر تفصيل الكلام عن الأولين ص ٤٢٩: ٤٥٣.
([4]) على حد قول عبد القاهر في الدلائل ص ٦٢٦.
([5]) ينظر فن القول ص ٨٥ وما بعدها.
([6]) الدلائل ص٤٣١.
([7]) الدلائل ص ٤٣٠.

واسطة، وبـ (معنى المعنى): أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك .. فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعَارض والوشي والحَلْيُ وأشباه ذلك، والمعاني الثواني التي يُومَأ إليها بتلك المعاني هي التي تُكسَى تلك المعارض وتُزيَّن بذلك الوشي والحَلْي"[1].

ثانيها: عن طريق النظم الذي تتلاحم لبناته ويتمثل في توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل بقوانينه وأصوله فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني أولا في نفسك ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك، وأنا لو افترضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصور أن يجب فيها نظم وترتيب[2]، فالمعنى المدلول عليه في النظم ليس المرادف، أو ذاك الذي يتصور أن يكون له تفسير، وإنما هو الذي يكون "بحيث لا يبقى للفظ بعده سوى ما يُرجع إليه باعتباره صوتاً وجرس حروف .. في عبارة أخرى يُرجع إليه باعتباره دالاً وليس باعتباره صوتاً وصدى أو أثراً لتحريك جهاز النطق"[3] .. وهذا يلحق به

ثالثها: وهو ما أتاه الحسن من الجهتين على الإشكال في مرجعية المزية والفصاحة فيه هل هي إلى اللفظ وحده أم إلى ما ترجح لدى البلاغيين وهو النظم أي "الصفة الراجعة إلى اللفظ باعتبار معناه عند التركيب"[4] على حد ما جاء في عبارة الخطيب وهو يجمع ويوفق بين أقوال من أرجع المزية في الكلام إلى المعنى الوضعي الغفل، ومن أرجعها إلى اللفظ المجرد "وتراك قد حِفت فيه على (النظم) فتركته، وطمحت ببصرك إلى اللفظ، وقدَّرت في حسن كان به وباللفظ، أنه للفظ خاصة"[5] .. إلا أنه في الحقيقة راجع إليه باعتبار معناه.

فهذان الأخيران يمثل (الاعتبار المناسب) فيهما أو (المقتضى) عنصر الأساس، إذ هما المَعْنيَّان بـ (الدلالة الفنية) لمعاني الكلم أو (الخصوصيات التي هي مقتضى حال من التقديم والتأخير وخلافه)، والمقصودان بـ (الرباط الناظم) في قول من سبق عبد القاهر وعلى حد ما قال الخطابي: "وإنما يكون الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط بينهما ناظم"[6]، إذ يقابل (اللفظ الحامل) في كلام من جاء بعد الخطابي: الكلم المفردة قبل التأليف ثم هو المقال المركب بعده، ويمثل (المعنى القائم): المعاني المعجمية أو الإفرادية للكلم قبل تأليفها، و(الرباط الناظم): معاني النحو التي يحدثها النظم و"ما به تحولت الكلم المفردة إلى كلام، وتحولت دلالتها إلى مفهوم كلي واحد، هكذا ينبغي أن يفهم كلام الرجلين – الخطابي وعبد القاهر – في ضوء حديثهما المفرَّق في مواضع متباعدة"[7].

ولا دلالة لما ألمع إليه شيوخنا القدامى والمحدثون، سوى أن الأمر في البلاغة لا يتوقف على المعاني الثانوية أو الخصوصيات الملابسة لتآخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام والأحوال الداعية إليها، وهو ما أسماه المتأخرون (الاعتبار المناسب)، وأوهم الحداثيون أنها كل البلاغة وأنها "جزئية"، بينا هي في واقع أمرها – على ما سبق ذكره – لا تقع تحت حصر .. أقول: إن أمر البلاغة لا يقف عند المعاني الثانوية بل إنه ليمتد حتى يشمل المعاني التي تكتنفها طرق الإيراد من تشبيه أو استعارة أو كناية أو مجاز مرسل أو ما شابه، بل ووجوه التحسين كذلك على اتساعها وتنوعها.

([1]) الدلائل ص ٢٦٣، ٢٦٤.
([2]) الدلائل ص٤٥٢، ٤٥٤، وينظر ٥١، ٨٧، ٣٦٢، ٤٠٥ وما بعدها.
([3]) مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث د. إبراهيم الخولي ص ٢٦١.
([4]) ينظر الإيضاح مع البغية١/ ٢٢ وينظر نصوص عبد القاهر في الدلائل ص ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٩.
([5]) الدلائل ص ١٠٠.
([6]) رسالة بيان إعجاز القرآن ص ٤٧ ت خلف الله وسلام.
([7]) ينظر مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث د. إبراهيم الخولي ص ٢٣٤.

ففي سابقة هي الأولى من نوعها والبالغة الدقة في بابها، تروم استقصاء الأساليب والطرق التي يرد فيها الكلام الذي يلقى حظه من الحسن والقبول، يلفت شيخ البلاغة عبد القاهر الأنظار إلى أنه ليس من الصحة أن يعَوَّل في أصباغ البديع على الألفاظ فقط وإن بدا أن الأمر فيها كذلك في الظاهر وعلى ما يُظَن .. ويزيل هو اللبس عن ذلك ويشير إلى أن هذا اللون من الحسن: "قد يتوهم في بدء الفكرة وقبل إتمام العبرة، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجي فيه العقلُ النفسَ، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ومنصرف فيما هنالك، منها (التجنيس) و(الحشو)، أما (التجنيس) فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً .. وأما الحشو .. فلو أفاد لم يكن حشواً ولم يُدْعَ لغواً، وقد تراه – مع إطلاق هذا الاسم عليه – واقعاً من القبول أحسن موقع، ومدركاً من الرضا أجزل حظ، وذاك لإفادته إياك على مجيئه مجيءَ ما لا معوَّل في الإفادة عليه ولا طائل للسامع لديه، فيكون مَثَله مثل الحسنةِ تأتيك من حيث لم ترتقبها، والنافعةِ أتتك ولم تحتسبها، وربما رزق الطفيلي ظرفاً يحظى به حتى يحلَّ محل الأضياف الذين وقع الاحتشاد لهم، والأحباب الذين وُثِق بالأنس منهم وبهم"، وراح يضرب لهذا وذاك الأمثال[1].

وكلامه له اعتباره، غير أن متأخري البلاغيين ربما استشعروا من عبارته الأخيرة وما جاء على شاكلتها ما قد ظُن، فراحوا يعرفون البديع بأنه "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"[2] .. كذا بما يفيد أن الحسن الذي تحدثه هذه الوجوه في الكلام ذاتي في الألفاظ بالأساس، وبما يفيد جعل المطابقة والوضوح شرطاً لا ركناً في التعريف، وأن المحسنات البديعية تحسن في الكلام ولا يجب فيها المقتضى على نحو ما يجب في التأكيد مثلاً ونحوه مما يرجع إلى النظم لكون التأكيد بالنظر إلى (علم المعاني) من مقومات البلاغة، ولا وضوح الدلالة على نحو ما يجب في (علم البيان) لكون الأخير من مقومات الفصاحة[3] .. ولأن من الاستعارة "ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته"[4] فقد بُدء بمتعلق النظم وهو (علم المعاني) وجُعل أصلاً لما وليه، ولأجل ما سبق من تعلق (البيان) بالنظم وطرق أدائه فقد ثني به، ولأن (البديع) يأتي في الترتيب بعد المطابقة ووضوح الدلالة فقد أُخر.
ومهما يكن من أمر فإنه ومن خلال ما تَقتضيه القسمة العقلية والحصر الاستقصائي لطرائق العرب في التعبير، ينبغي أن تفهم – على ضوء ما سبق – عرى الاتصال والانفصال في ضروب الكلام الذي وصلنا عنهم، وأن نتفهم عراهما في وجه الجمع والتقسيم والتقديم والتأخير لدى القدماء لعلوم البلاغة، إذ ثمة عامل مشترك يجمع بين (علم المعاني) المعنيِّ بالأساليب و(علم البيان) المعنيِّ بطرق إيرادها، يتمثل – إلى جانب (حسن الدلالة) وإحداث (المزية) التي بها يتفاضل كلام على كلام – في أن كلاً يبحث بطريق غير الآخر عما وراء دلالات الألفاظ الوضعية وفيما يتصل بخصائص القول التي تعود على المعاني .. وأن ثمة خيوطاً رفيعة مع هذا تفرق بين العِلمين من جانب، وبينهما وبين علم (البديع) من جانب آخر، فكل ما تعلق – على جهة الحقيقة – بالاعتبار المناسب وكان مرجع البلاغة فيه مراعاة المعاني الثانوية والاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، اختُص بـ (علم المعاني) .. "وكل ما – كان على جهة الاتساع أو بعبارة عبد القاهر – فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر"[5] وهو ما أطلقوا عليه (معنى المعنى)،

([1]) الأسرار ص ٧، ١٩ وما بعدهما.
([2]) الإيضاح مع البغية ٤/ ٣.
([3]) ينظر السابق وينظر الدلائل ص ٩٩ وما بعدها والأسرار ص ٨.
([4]) الدلائل ص ١٠٠، وينظر ص ٤٣١.
([5]) الدلائل ص ٤٣٠.

اندرج تحت (علم البيان) .. وكل ما كانت المزية ووجوه التحسين فيه راجعة للألفاظ بالأساس بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة جاء بالطبع مؤخراً ودخل تحت (علم البديع)[1].
فهل ترى شمولاً لـ (لمعاني الخفية) أو(الألفاظ الدالة بنفسها على الحسن)[2] تتعلق ببلاغة (فن القول) أو(علم الأسلوب) – بمفهومنا نحن اللغوي لا بالمفهوم الاصطلاحي الوافد إلينا من الغرب – أعم من هذا؟؟!! ..وهل لنا أن نفهم من كلام عبد القاهر مما يقتضيه العقل، إلا ما فهمه المتأخرون من أن (علم البيان) يأتي بعد (علم المعاني) باعتبار أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا يتأتى أن نفهم من المعاني معانيها دون أن نفهم المعاني الأولى أولاً وخصوصياتها؟؟!! .. وهل ترى وجهاً – بعد ذاك الذي ذكرناه بحق (علم المعاني) بالذات – لإدخال فنون الأدب ومعانيه وأغراضه إلى غير ذلك مما يتعلق بالدراسات الأدبية والنقدية وسواهما، مما يريدون إقحامه من غريب المعارف فيما يسمونه بـ (صور البلاغة الإفرادية والتركيبية عند المحدثين)[3] ويتخذون منه تكأة وذريعة للانقضاض على البلاغة وعلومها وأصولها؟؟!!.

<u>ثانياً: الأسلوبية الحديثة والسعي لنقض علم المعاني – مع سائر علوم البلاغة – من الأساس، وخروج الدرس البلاغي عن وظيفته، وتحويله – على خلفية المطالبة بتوسعته ليشمل أغراض الأدب ومعانيه – إلى درس في الأدب وفنونه</u>

ويوصلنا ما سبق ذكره هنا في تشويه البلاغة بإعادة تقسيمها – وكذا ما سبق إبان حديثنا عن الأسلوبية و(مكونات اللفظ العربي) و(قضية اللفظ والمعنى) – إلى أن كلام الحداثيين بشأن تقسيم الدرس البلاغي إلى (بلاغة الألفاظ) و(بلاغة المعاني) والمناداة بأن "تتسع دائرة البحث لكل ما تشمله طبيعة الفن القولي وعمل الأديب فيه"[4] عن طريق "إفراد مكان من هذه الدائرة الفسيحة لبحث المعاني الأدبية في حقيقتها وميزتها، وفي إيجادها وترتيبها"[5] .. و"تخصيص مكان من هذه الدائرة الواسعة لبحث الفنون الأدبية .. فندرس في (فن القول) تقسيم الناس قديماً وحديثاً لهذه الفنون نثراً ونظماً"[6]، "حتى ننتهي إلى دراسة فنون القول الأدبي المنظوم والمنثور فناً فناً، وما به قوام كل فن وحسنه، متخطين الفنون القديمة من المقامة والرسالة والخطبة، إلى الفنون الحديثة من المقالة والقصة على اختلاف أنواعها"[7] .. و"تمييز مكان في هذه الدائرة الموسعة لدرس الأساليب .. للإشراف على آفاق أدبية ونقدية، ومذاهب في ذلك، ومدارس في الفن القولي نعرِّف بها ونبين أهدافها وخصائصها، فنتحدث – بعد المعروف الشائع – عن الفكاهة والتهكم وما إليهما من حيث هي عوالم فنية ونزعات أدبية، كما ندرس الرمز الفني والرمزية الأدبية .. من حيث هي ضروب من الفن تتصل بموجهات نفسية ونحوها وترمي إلى أهداف أدبية واجتماعية وما إليها من كبريات الغايات التي تضطلع الفنون اليوم بالوفاء بها في حياة الناس أفراداً وأمماً"[8].

([1]) يقول خولي البلاغة القديمة: "ولعل موقف الشيخ وتفرقته بين المباحث التي تدخل دائرة التوسع أو المجاز وتلك التي تدخل دائرة الحقيقة، مع ربطه بين الأولى وبعض صور البديع (خاصة في الأسرار) .. هو الذي وجه السكاكي ومن بعده لتوسيع هذه التفرقة، بما أتاح فصل ظواهر العلوم الثلاثة في النهاية على نحو ما استقرت عليه عند الخطيب" [مقتضى الحال د. إبراهيم الخولي ص ٢٦٣].
([2]) موضوعات الدرس البلاغي بالأساس.
([3]) ينظر فن القول ص ٧٧.
([4]) فن القول ص ٢٣٥.
([5]) فن القول ص ٢٤٠.
([6]) فن القول ٢٤١.
([7]) مناهج التجديد ص ٢٠١وينظر فن القول ص ٢٣٢، ٢٤٠ وما بعدهما.
([8]) فن القول ص ٢٤١.

هو كلام من يهرف بما لا يعرف، وهو مناقض لما رفعوه من شعار أنه لا يكون ثمة تجديد إلا بعد أن يُقتل القديم فهماً[1]، وإنما حكمنا بذلك لسببين:

أولهما: أن القدماء ما قصدوا البتة أن يجعلوا المعاني الأدبية والأغراض الفنية – التي هي على حد قولهم: روح الفن القولي ومظهر عظمة الأديب وأثر ثقافته وشخصيته – قسيم الألفاظ، حتى نحاكمهم ونتهمهم بالقصور في تناول هذه المعاني الأدبية والأغراض الفنية أو درجها ضمن مباحث الدرس البلاغي أو إدخالها أصلاً في ميدان الدراسات البلاغية .. وما كان ذلك ليصح من الأساس حتى يدور في خلدهم أو يحوز على تفكيرهم أو يحظى باهتمامهم، وحتى نجعل من ذلك الخلط العجيب قضية القضايا .. لكون ذلك – على ما سبق بيانه في أول سلبيات تناول (علم المعاني في ضوء الأسلوبية الحديثة) – حرثاً للبلاغة في غير أرضها.

وما أرادوا – كذلك – الفصل بين الألفاظ ومعانيها بهذا الشكل الغريب المريب، حتى يقال: إنهم قصروا "البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أدائها للمعاني الجزئية بالجملة الواحدة أو الجمل المتصلة في معنى واحد، ولم يجاوزا ذلك" في علمي المعاني والبيان، "وأما المعاني – التي هي بمفهوم أولئك التجداديين السذج: المعاني الأدبية والأغراض الفنية – فلم ينظروا فيها" .. وما كان ذلك أيضاً ليصح لِتفَرُع ذلك لدى القدامى – وهم أهل التحقيق والدراية لفنون القول على الحقيقة – عن سابقه، ولكونه أيضاً إدخالاً للبلاغة في غير ميدانها.

ثانيهما: بيان حقيقة أن الدلالات التي تمثل بصدق "روح الفن القولي ومظهر عظمة الأديب وأثر ثقافته وشخصيته"، هي تلك التي سبق الإشارة إليها وتحمل في طياتها الدلالات الفنية والاعتبارات المناسبة والخصائص الأسلوبية والتركيبية في الجملة والفقرة والقصيدة والمقالة .. إلخ، فهذه هي المسماة لدى أهل الفن بـ (المعاني الثانوية) أو (معنى المعنى)، وهي التي يجب أن يتوسع فيها في كل مجالات الفن القولي المختلفة[2].

كما يوصلنا ما سبق ذكره إلى حقيقة أن قدامى البلاغيين كانوا على حق عندما جعلوا الدلالات التي تحمل في طياتها الاعتبارات المناسبة والخصائص الأسلوبية والتركيبية في الجملة والفقرة والقصيدة والمقالة .. إلخ، مقياساً للمعاني الفاضلة التي يشرف بها كلام على كلام، لكونها التي تمثل بحق "روح الفن القولي ومظهر عظمة الأديب وأثر ثقافته وشخصيته" والتي يهدف إليها الدرس البلاغي .. وأن أهل الحداثة قد جانبهم الصواب حين عمدوا "إلى تحقيق الغرض البعيد في تجديد البلاغة العربية تجديداً يمس الأصول والأسس فيغيرها وينفي فيها ويثبت"[3] بزعم أن القدماء قصروا "البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أدائها للمعاني الجزئية"[4]، وأنهم لأجل ذلك أرادوا تحليته بـ "توسعة دائرة البحث وبسط أفقه، فلا يقتصر على الجملة بل نمد البحث بعد الجملة إلى الفقرة الأدبية ثم إلى القطعة الكاملة من الشعر أو النثر"[5]، لما ذكرنا من شمول الاعتبارات المناسبة لكل فنون القول وطرق أدائها، ولعدم صحة القول بقصر البلاغة القديمة على تناول الجملة أو الجملتين.

على أن تهوين د. أمين الخولي من شأن الاعتبارات المناسبة على هذا النحو السافر والاستعاضة عنه بالاقتراح السالف الذكر، إنما جاء ضمن خطة تهدف إلى إلغاء البلاغة كلية وتبدأ الخطة بالإطاحة بعلم المعاني وبما استقر عليه أمر قدامى البلاغيين الذين "يعرفون بلاغة الكلام بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، ويشرحون هذا المقتضى بأنه الاعتبار المناسب الذي

([1]) ينظر فن القول ص ١٩٢، ومناهج التجديد ص ٤، ٩٨.
([2]) وليست الوضعية أو الأدبية.
([3]) مناهج التجديد لأمين الخولي ص ٢٠٠، وينظر ص ١٩٩ وفن القول ص ٦٤، ٦٧.
([4]) مناهج التجديد ص ٢٠١.
([5]) فن القول ص ٢٣٩باختصار وينظر مناهج التجديد ص ٢٠١.

يلاحظ، ويتحدثون عن إنكار السامع لما يلقى إليه أو موافقته عليه أو خلو ذهنه، ويفرقون بين الذكي والغبي والمعاند، كما يتكلمون عن رغبات المتكلم واتجاه نفسه لما يتحدث عنه من حب أو كره، وتلذذ أو تألم، وما لكل ذلك من أثر في القول، تلك بلاغة الكلام، وأما بلاغة المتكلم فهم لا يعرفونها إلا بأمر نفسي محض، إذ يقولون إنها ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ .. إلخ"[1] فأدار أدعياء البلاغة الجدد – بصنيعهم هذا في سبيل تحقيق غرضهم البعيد – ظهورهم لتقسيمات القدماء لما تقع البلاغة وصفاً له، وأوصلهم استمرارهم في هذا الخط البياني المنحرف إلى أن تجديد البلاغة إنما يتأتى عن طريق توسعة آفاق البحث البلاغي ليشمل إعادة تقسيم علوم البلاغة على غير الأسس والمبادئ التي قام عليها، بعد أن "صار التقسيم القديم للبلاغة إلى (المعاني) و(البيان) و(البديع) لا أساس له ولا غناء فيه"[2] فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد نعى شيخنا – شيخ البلاغة الحديثة في تناولها وعذوبتها، القديمة في قواعدها وأبوابها المتجذرة في أصولها وعلومها، د. أبو موسى – على أرباب الأسلوبية إثر نعيهم هم على بلاغتنا وقد أرادوا وأدها .. ولا أحد يستطيع أن يغمطه حقه في الدفاع عن البلاغة العربية وقد عاشها وعرف قدرها وعركها طوال سنوات دراسته وإبان قيامه بمهمة تعليمها هنا وهناك، وأفنى حياته في التأليف حولها حتى بلغت شهرته وشهرة ما كتبه الخافقين .. بل وبعد أن وجد أثَرَ ما يهرف به الهارفون ونتيجة ومحصلة ما يقومون به من بذل الوقت والجهد، سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

يقول فضيلته في مقدمة الطبعة السادسة لكتابه (خصائص التراكيب): "قرأت منذ زمن كلاماً يقول صاحبه: (إن البلاغة بلغت حد اليأس وتجمدت وعقمت، وأصبحت كالجذع القديم، ويجب أن تموت وأن يرثها علم الأسلوب)، ولما قرأت هذا الكلام طرحته ولم ألتفت إليه، لأنه في تقديري – لم يكن أكثر من [بلُونة] يلعب بها طفل يحب أن يلفت الناس إليه، لأننا لن ننشئ (علم الأسلوب) ولم نستخرجه من لغتنا حتى يصح أن يكون بديلاً لعِلم من علومنا[3]، وبديهة العقل تقول: (إن الذي يسد مسد علم لا بد أن يكون مستوعباً لمسائل هذا العلم، ومستخْرَجاً من اللغة التي استُخرج منها هذا العلم، ومؤدياً الوظائف نفسها التي كان يؤديها هذا العلم، وأن نطمئن على قدرته على شرح طرائق العربية وتحليل سننها في الإبانة عن معانيها قبل أن نئد هذه البلاغة التي قامت بهذه المهمة هذا الزمن الطويل، وإذا جاز لمن استخرج (علم الأسلوب) من لغاتهم وعلومهم أن يقولوا هذا بناء على رؤيتهم وأنهم حرَّاص على لغاتهم، فلا يجوز لنا أن نقوله في بلاغتنا، وليس عندنا (علم أسلوب)، نعم يجوز لنا أن نقول هذا إذا قبلنا أن نكون ببغاوات تُردد وتحكي ولا تعقل".

ويستطرد فضيلته قائلاً كالمتحسر على ما آلت إليه بلاغة العرب والعربية: "قلت إنني قرأت هذا وطرحته، ثم فوجئت بهذا الكلام الفارغ يتكرر في كتب يدرسها أبناؤنا في جامعاتنا.. والذي أعلمه ويعلمه كل من له عقل أن شأن الذي يحمل القلم ألا يكون متهوراً، وأنه يجب أن يكون حذراً متردداً، وأن الأصل فيه أن يكون خبيراً بمفردات العلم الذي يكتب فيه، وإذا رأى مفردة من هذه المفردات لا تعين على فهم سر من أسرار اللسان الذي هو من أهله، عليه أيضاً أن يتردد في الحكم على هذه المفردة بوجوب الإعدام، لاحتمال أن تكن لها فائدة غابت عنه .. أما أن يحكم على علم كامل من ألفه إلى يائه بالوأد، فهذا ليس من شأن من يحمل القلم".

([1]) مناهج التجديد ص ١٣٨وينظر تفاصيل هذه الخطة أيضاً ٩٤، ٩٦، ١٣٠وفن القول٣، ٦٦، ٦٩ وغيرها.

([2]) مناهج التجديد ص ٢٠١.

([3]) فـ "الأسلوب – على حد قول عبد القاهر في الدلائل ص ٤٦٩ – هو الضرب من النظم والطريقة فيه" .. والبلاغة في جملتها: "حركة أسلوبية تابعة لحركة فكر المتكلم وعاطفته ومقام تكلمه ومخاطبه والغرض من كلامه"[الحركة الأسلوبية د. عبد الرازق فضل ص: أ]، فالكلام إزاءها، لا يسير على منوال واحد، وإنما تكون حركته تابعة لحركة الأفكار والمشاعر ونابعة من الحالة النفسية للمتكلم[ينظر السابق].

ثالثاً: الأسلوبية الحديثة والابتعاد عن الهدف الذي لأجله كانت نشأة علم المعاني وسائر علوم البلاغة

والأفدح من كل ما سبق أن تضيع – جراء التفريط في أدوات التدبر – الغاية من وراء الدرس البلاغي، والماثلة في الوقوف على دلالات الكتاب العزيز، وما يشتمل عليه من أسرار ونظم (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) .. فالحداثيون يرون أن مجمل ما يهدف إليه التجديد في ميدان الدراسات البلاغية يتمثل في "وصل البلاغة بالحياة الأدبية وجعلها دراسة ذات جدوى"[1]، أو بعبارة أخرى: "تحقيق مصالح حيوية للأفراد والجماعات" وتلك هي الغاية العملية، ثم "الإمتاع بالتعبير عن الإحساس بالجمال أو بالتذوق الناقد لروائع الأداء الفني المترجم عن الشعور بالحسن"[2] وتلك هي الغاية الفنية .. ونقول: إن هذا حق وتلك أهداف أصيلة، فلا أحد يستطيع أن يغمط الدراسات البلاغية حقها الأكيد في الإمتاع بالبليغ من القول وفي أن تتصل وتتوثق صلتها بالأدب الذي هو صورة الحياة، تتطور بتطوره ويأفل نجمها بأفوله.. لكن: شريطة أن لا تطغى – على ما أوضحنا – النزعة الأدبية بحيث تذهب معها المفاهيم البلاغية، لما يترتب على ذهابها من غياب النكات والوجوه البلاغية وخفائهما عن الاعتبار، مع ما لهما من فضل على البليغ من القول لكونهما سر الحكم عليه وروحه والفيصل في تمييز جيده من رديئه.

وشريطة أن يقترن كل ذلك بالمعجم التركيبي لألفاظ اللغة العربية الذي حفظها من الضياع وضمن لها البقاء والقوة وهو القرآن الكريم الذي كان ولا يزال وسيظل مصدر الإمتاع الأول والتأثير الأقوى بشهادة الكافر به والمؤمن له، وباتفاق كل من اهتم بدراسة البلاغة العربية قديماً وحديثاً[3] .. وبخاصة إذا عُلم أن الهدف الأسمى الذي لأجله وضعت الدراسات البلاغية هو الكشف عن وجوه ودلائل الإعجاز في هذا الكتاب الخالد.

ونتساءل مع من يتساءلون، هل ما ذكروه لتحقيق الهدف من وراء الدرس البلاغي وهو ما تمثل في قولهم – إضافة لما سبق ذكره – : "يكفي أن نأخذ برأي القدماء حينما كان أبو هلال العسكري يقول: إن صاحب العربية يستطيع بعلم البلاغة أن يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، كما يستطيع أن يصنع قصيدة وينشئ رسالة، وبهذا تُحكّم حاجة الحياة الأدبية ويُنتفع بكل ما يجدُّ في تلك الحياة من نافع ونخدم الفنون القولية الرائجة"[4] ..هل هذا يعد كافياً بالفعل؟؟!!.

إن الجواب المنصف على هذا السؤال يقتضي القول بأنه وبغياب الهدف الديني والرئيس الذي لأجله وبسببه وضعت البلاغة العربية وسائر علوم المسلمين، لا قيمة للدرس البلاغي وإن ذكر أضعاف أضعاف ذلك من غايات وأهداف، وما ذلك إلا لكون القرآن هو بمثابة المعيار الذي يوزن به البليغ من الكلام والنموذج الأوحد لما إليه ينتهي حد الإعجاز، وبقدر الاقتراب منه بما هو في مقدور البشر يكون الحكم على بلاغة الكلام، وعلى بلاغة المتكلم بعد أن يتربى لديه – بمطالعته إياه مع ما جَمُل من كلام البلغاء – الحس والذوق، إذ ذاك شرط فيها .. وعليه فلا وزن لأي هدف – بعُد أو قرُب – يستنكف هذا الهدف الأسمى والغاية الكبرى، وبخاصة عندما يتم التصريح علانية بذلك، أو بما يفيد إمكانية القدح – ودون ما حياء ولا خجل – في إعجازه على نحو ما جاء في قول أمين الخولي في كتابه فن القول ص ٢٠٨: "وحين نقدر مثل هذا الملحظ – ويعني به: غاية البلاغة اليوم المتمثلة في (المتعة الروحية بالفن القولي والآثار الأدبية .. حياة الأمم الراقية

([1]) مناهج التجديد لأمين الخولي ص ٢٠٠.

([2]) فن القول لأمين الخولي ص ٢٦٥.

([3]) ولا أظن أن أحداً ذا عقل حتى ممن لم يدرس البلاغة أو يعي منها شيئاً سمع بالقرآن أو اطلع عليه يختلف حول أثره وتأثيره في حياة الناس منذ نزل على الخلق وإلى أن يرث الله الأرض.

([4]) مناهج التجديد لأمين الخولي ص ٢٠٠.

وحياة أفرادها) – ينبغي أن نقدر معه أن الاعتبار الديني الذي كان ينتهي عنده قول الأقدمين في غاية البلاغة، قد تغيرت به الحال أيضاً من جهات عدة .. منها: أن مسألة الإعجاز نفسها، قد قيل فيها ما يعده أصحاب الدين كافياً مغنياً، وما أحسب أن لديهم جديداً يزيدونه عليه" .. وقوله ص ٢١٨، ٢١٩: "أوثر أن أعرض القرآن لدرس فني حر مخلص .. وبحسبنا من ذلك كله، إن إنكار الإعجاز البلاغي للقرآن مما لم يَلحق به أحداً بأسٌ ولا يَدخل به نقص على عقيدة"[١] .. وقوله ص ٢١٨: "ليس لنا مع هذه الدراسة رأي بعينه في الإعجاز الأدبي نلتزمه أو ننافح عنه، ووراء هذا أنا لا نتأثل سلاحاً بعينه في كفاح ما، عن هذا الإعجاز، ولكنا لن نترك الرأي في الإعجاز الأدبي نفياً وإثباتاً، بل سنضع من أصول الفن القولي ما يستطيع الزمن أن يضعه، متحرراً من كل قيد، ثم ننظر على ضوئه في هذا القرآن، فينتهي بنا ذلك النظر إلى ما يمكن أن ينتهي إليه وتقبُّله[٢] ما دامت القدرة الإنسانية قد سُخرت[٣] لتبرئته وتنزيهه"، "فلا نلقى هذا الكتاب الكريم والتراث الجليل[٤] برأي سابق فيه وحكم مبيت قد أملاه هوى"[٥] .. وقوله ص ٢٦٧: "ومن التخلية العملية أيضاً: ألا نلزم دراستنا الطابع الديني الذي لزمها يوم كانت غايتها معرفة إعجاز القرآن، فنحن كما قلنا لا نلتزم رأياً بعينه في هذا الإعجاز، ونرى الحياة الدينية نفسها قد اكتفت من ذلك بما قيل، فلا حاجة بها إلى جديد فيه، وإن جدَّت بها تلك الحاجة التمسَتْها بنفسها على المنهج الذي تختاره وأعفتنا من هذا التناول" .. وقوله ص ٢١٧: "إنا لم ننظر إلى هذا الكتاب نظرة لاهوتية في لون ما من ألوانها، ولن نخشى من ترك هذه النظرة اللاهوتية خطراً قريباً أو بعيداً على عقائدنا أو عقائد الناس حولنا، فإن هذا الإعجاز الأدبي قد دفعه مسلمون حين قالوا بالصَّرْفة، ولم يقدح إنكار الإعجاز البلاغي في عقائدهم[٦] ما داموا قد عرفوا وجهاً آخر له، وإذا كان الرأي الأدبي بعينه في تقدير القرآن ليس مما يلزمنا عقيدة ولا يتوقف عليه إيمان، فقد تحررت دراسة فن القول من كل ضغط لاهوتي".

---

(١) ولا أدري من أين أتوا بهذا الكلام وكيف خرجوا بهذه المحصلة، ذلك أن من قالوا بالصرفة لم يتنكروا للإعجاز البياني للقرآن وما تفوهوا بهذا الكلام المفضي إلى إنكار ما هو معلوم بالضرورة.

(٢) كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

(٣) وكأنها لولا ذلك لكان بإمكان هذه القدرة الإنسانية أن تأتي بسورة من مثله حتى لو عجز أقحاح العرب قاطبة عن ذلك، وما أشبه هذا بما تبناه المعتزلة من القول في القرآن بالصرفة.

(٤) أي كرم هذا وأية جلالة تلك التي يحكي عنهما ذاك الذي لا يعرف عمَّ يتكلم ولا مغبة ما يقول.

(٥) ومَن أكره مَن حتى يصل الأمر إلى هذا الحد، على القول جدلاً بافتراض وقوعه؟.

(٦) جمع الله بينهم في الآخرة كما جمع بينهم في الدنيا وصرف الله قلوب جميعهم .. على أن القول بالصرفة قد رده أهل العلم من غير ما وجه، *__الأول__*: أنه يستلزم أن يكون المعجز (الصرفة) لا (القرآن)، وهو خلاف ما عليه إجماع المسلمين من قبل، *__الثاني:__* أن التحدي وقع بالقرآن على كل العرب، فلو كان الإعجاز بالصرفة لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد، ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه، فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتاداً له، والمعتاد لكلٍّ ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه، فيلزم أن يكون القرآن كذلك وليس كذلك، *__الثالث:__* .. وقد استدل به بعضهم على فساد القول بها، هو قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .. الإسراء: ٨٨)"[تفسير الآلوسي١/ ٥١]، ومن المعلوم أن القرآن تحدى العرب غير ما مرة ولو بمثل أقصر سورة منه، ثم سجل العجز عليهم وقال بلغة واثقة إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا ولن يفعلوا ولو ظاهرهم الإنس والجن، فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا ولو كانوا أجبن خلق الله؟، *__الرابع:__* أن المعجز يظهر في كل زمان من جنس ما يغلب ويبلغ فيه الغاية القصوى ويوقف فيه على الحد المعتاد، حتى إذا شوهد ما هو خارج عن الحد علم أنه من عند الله .. والبلاغة قد بلغت في ذلك العهد حدها، وكان فيها فخارهم حتى علقت السبع بباب الكعبة تحدياً بمعارضتها، فلما أتى الرسول بما عجزوا عن مثله مع كثرة المنازعة والتشاجر والافتراق وكثرة دواعي التحدي علم أن ذلك من عند الله بلا ريب، *__الخامس:__* أن العرب الذين تحداهم القرآن كانوا مضرب المثل في الحمية والأنفة وإباء الضيم، كما كانت صناعتهم البيان وديدنهم التنافس في ميادين الكلام، فكيف لا يحركهم هذا التحدي والاستفزاز؟ وكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة؟، *__السادس:__* ثم إن القرآن – فضلاً عما ذكر – أثار حفائظهم وسفه

كذا بما يحط من قدر قدسية القرآن والنيل من إعجازه البياني، وبما يعني التجرؤ في إخضاع كلام الخالق لمعايير الخلق النقدية وقوانينهم الفنية التي قد تصيب وقد تخطئ، وقد تكون عربية صاحبة هوى، أو وافدة عجمية كارهة دخيلة، أو مريضة تشكك أو يصل الأمر بها إلى "إنكار الإعجاز البلاغي بوجه أدبي، وليس – لديها – في هذا بأس ولا هو يجعل لأحد عليها سبيلاً"[١]، حتى لو عجز الإنس الجن على أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، أو كانوا على قلب واحد وسلموا بهذا الإعجاز البلاغي تسليماً، بل وحتى ولو تواتر على التسليم بإعجازه إجماعُ أهل الأدب واللغة[٢] على مدى القرون الماضية المتطاولة .. وكان هذا الخولي قد سبق وأن أخضعه من قبل لمعايير البشر وقوانينهم النفسية على ما صرح به في موطن آخر بقوله: "فبالأمور النفسية لا غير يعلل إعجاز القرآن وإطنابه، وتوكيده وإشارته، وإجماله وتفصيله، وتكراره وإطالته، وتقسيمه وتفصيله، وترتيبه ومناسباته"[٣].

ومما قاله د. أمين الخولي في ضيق أفق من جعل قضية الإعجاز القرآني غاية الدرس البلاغي: "إن أفق الدرس القديم في أرحب عهوده كان أضيق من الأفق الحديث، لاختلاف النظرتين إلى الحياة، ونحسب أننا اليوم في حاجة شديدة لبسط هذا الأفق"[٤]، بـ "ألا نلزم دراستنا الطابع الديني الذي لزمها يوم كانت غايتها[٥] إعجاز القرآن"[٦]، إذ بهذا تحدث التخلية العملية من الدرس البلاغي القديم لتأتي على إثرها التحلية المعنوية "بأن نشعر بعظمة الغاية التي نلتمس من أجلها الدرس الأدبي وحيويتها"[٧] .. ومما يراه الخولي من هذا الخلط، ضرورة "فصل هذه الدراسات الأدبية عن المؤثرات الدينية الخاصة، شعوراً بأن للحياة حاجات وحاجات .. وهو شعور قد يتصل برغبة عامة في تخليص الحياة من تلك الموجات اللاهوتية"[٨] .. وقد حداه كل ذلك لأن يحمل على من جعل عناوين كتبهم تأخذ هذا الطابع الديني كما في (دلائل الإعجاز) و(نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) و(الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز) .. ولأن يستنكر على صاحب الطراز قوله في تعريف البلاغة – بعد أن حدَّها بأنها الجامعة لعلمي المعاني والبيان، وقصَر الغرض من دراستها على مسألة الإعجاز وحدها –: هي "علم يمكن معه الوقوف على معرفة أحوال الإعجاز، لأن الإجماع منعقد من جهة أهل التحقيق على أنه لا سبيل إلى الاطلاع على معرفة حقائق الإعجاز وتقرير قواعده من الفصاحة والبلاغة إلا بإدراك هذا العلم وإحكام

عقولهم وعقول آبائهم ونعى عليهم الجمود والجهالة والشرك بل وأقام حرباً شعواء على أعز ما لديهم من عقائد وعوائد، فكيف يسكتون بعد كل هذا التقريع والتشنيع مادامت هذه المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو كان ذلك باستطاعتهم؟، ***السابع:*** أن العرب قد تفننوا واستفرغوا وسعهم في إيذاء النبي حتى تآمروا على قتله وأرسلوا إليه الأذى في مهاجره فشبت الحرب بينهم وبينه في خمس وسبعين موقعة منها سبع وعشرون غزوة وثمان وأربعون سرية فهل يقول عاقل: إنهم كانوا في تشاغل عما كان يتحداهم به غير معنيين ولا آبهين له، أو يقول إنهم أو واحد منهم حالوا المعارضة بمتقضى دافع الصرفة؟ ثم ألم يكف القائلين بالصرفة – قديماً وحديثاً أعني من السابقين وأذنابهم – شهادة أعداء القرآن أنفسهم في أوقات تخليهم عن عنادهم، كتلك الشهادة التي خرجت من فم الوليد (والفضل ما شهدت به الأعداء)؟[ينظر مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني ص ٤١٤ وما بعدها ط٣ والنبأ العظيم د/ محمد دراز ص٨٥ وما بعدها]، وليس هذا مقام سرد ما ذكره أهل العلم في هذا الصدد ولكن حسبنا منه هاهنا ما ذكرنا.

(١) فن القول لأمين الخولي ص ٢١٨ وينظر إلى جانب ذلك ما جاء في ص ١٣، ٢٢٣ومناهج التجديد ص٤٧.
(٢) الذين هم أدرى بمحاسن الفصحى وأعلم بطرائقها ومذاهبها وسننها.
(٣) مناهج التجديد ص ١٥٤.
(٤) فن القول لأمين الخولي ص ٢٦٥.
(٥) وستظل رغم أنف كل من يهون من شأن كتاب الله المجيد، أو يجعل الدرس البلاغي في معزل عنه.
(٦) فن القول لأمين الخولي ص ٢٦٧.
(٧) فن القول لأمين الخولي ص٢٦٨.
(٨) السابق ٢٠٩باختصار وينظر ص ٢١٧.

أساسه"[1]، وعلى ابن خلدون قوله: "إن فائدة علوم البلاغة معرفة إعجاز القرآن، ولاتصالها بهذا الأمر الاعتقادي كان فضلها أنها أشرف العلوم الأدبية، وكان حكمها: الوجوب الكفائي عند التعدد والعيني عند الانفراد"[2].

ومرد كل ذلك عند الخولي ومن سار في فلكه هو أن البلاغة في الماضي كانت تهدف إلى تحقيق غاية هي لدى هؤلاء أضحت أقل شأناً وأقصر باعاً، ألا وهي الوقوف "أمام – تلك – الاعتبارات الاعتقادية التي تحدُّ الدرس البلاغي وتكف من نشاطه"[3] .. ومن الطبعي أن يتبع هذه الدعوى العريضة، الابتعاد عن المعجم التركيبي للفصحى وتنحيته بشكل مزرٍ عن دائرة البحث أو التوسع في الدرس البلاغي، ثم التآمر على لغة الضاد وعلى العروبة لتحل محلها العامية التي هي "ليست أبداً – على حد قولهم – عدوة نَصَبَت لكيد الفصحى والفتك بها، وأن علينا إمعاناً في البغضاء وإرضاء للأهواء أن نبيد هذه العامية إبادة ونمحوها محواً"[4]، أو الشعوبية التي تمثلت في المناداة من قِبَلِ أولئك بـ (تمصير البلاغة) بزعم "أن العربية في مصر ليست إلا عربية مصرية"[5]، ومن ثم فهي "مادة تفاهمنا ووسيلة تبادل عواطفنا وصورة كياننا الفني، تتسع لآمالنا ومطامحنا ومشاعرنا وخلجات نفوسنا"[6] .. ولك أن تتخيل لو أن كل جماعة أو طائفة أو أمة أو قبيلة أو دولة أو محلة أو قرية أو مدينة في عالمنا العربي الآن، عملت بمثل هذا .. أكانت يا ترى تقوم للغتنا – منذ بدأ تنفيذ هذه الفكرة الخبيثة ولفترة وجيزة لا تتعدى السنوات – قائمة؟؟!!
إن "إخواننا – بهذا – عزلوا الإعجاز عن الدراسة الأدبية – التي ينشدونها – وهو عزل لا وجه له ولا سبب إلا انقطاع صلة الدرس الأدبي عندهم عن القرآن، ونبع ذلك – والكلام هنا للدكتور أبي موسى – الجهل بعلوم القرآن وبقضية الإعجاز، لأن الجهد مصروف إلى المذاهب والمناهج التي صاغها غرباء"[7].
"ثم ألا يدري هؤلاء الطاعنون من جهلة زماننا، أنهم بجهلهم هذا – يقول الشيخ محمود شاكر – يقتلون البيان في أنفسهم وفي أنفس البشر من بني جلدتهم، والبيان هو النعمة التي منَّ الله بها على الإنسان ليخرجه من حيز البهائم والعجماوات، فهم أحرى أن يدركوا أنهم بجهلهم وتهورهم يقتلون لغة يسر الله نزول القرآن بلسان أهلها، وهم نحن العرب"[8].
وليهنأ المسيحي (سلامة موسى) صاحب (البلاغة المعاصرة)، والمبشر(ولهلم سبيتا) أول الدعاة إلى العامية ومدير دار الكتب بالقاهرة في زمانه والذي وصل أمر تفانيه وتخفيه لنشر ما آمن به إلى"أن يعيش في حي وطني لكي يستقي العامية من منابعها الأصلية ولا يدوِّن إلا ما يسمعه، ثم يدون ما يسمعه بإذنه على كُمِّ قميصه خوفاً من أن يلاحظه أحد المتكلمين فيفقد طبيعته وحريته في الكلام"[9] .. فقد أثمرت دعوتهما ووُجد من بني جِلدتنا مَن يلبيها ومَن يقنن لها ويشيع العامية في الذين آمنوا دون ما حاجة إلى تخفي ولا تحايل، بل ومَن يمهد بطريق شرعي ورسمي لكل من يريد السير على منوالهما لينتج لنا (نصر أبو زيد)، و(حسن حنفي) وأمثالهما، وهم كُثر.

---

(1) مناهج التجديد لأمين الخولي ص ١٢٧وينظر الطراز للعلوي١/ ١٣.
(2) مناهج التجديد لأمين الخولي ص ١٢٨.
(3) فن القول لأمين الخولي ص ٢٦٧.
(4) السابق ص ١٧٠.
(5) فن القول لأمين الخولي ٢١١ وينظر ما بعدها ومناهج التجديد ١١، ٢٠، ٣٠، ٤٥، ٥٨، ٧١وما بعدها.
(6) فن القول ص ٢١٠ وينظر مناهج التجديد لأمين الخولي ص ٤٦.
(7) مقدمة خصائص التراكيب ط. السادسة د. محمد أبو موسى ص: ن.
(8) السابق نقلاً عن مدخل إعجاز القرآن للشيخ محمود شاكر ص ١١٨.
(9) ينظر موسوعة الجندي ٥/ ١٠٩.

لقد صدق إذاً حدْس مبتغي التجديد على أساس من الربط بين الأصالة والمعاصرة، حين أحسوا بهذه المؤامرة فراحوا يؤكدون على ربط البلاغة وسائر علوم المسلمين بخدمة الهدف الذي لأجله نشأت، ومن هؤلاء صاحب (المدخل إلى علوم البلاغة) الذي نص على "أن علم البلاغة يعد من أجَلِّ العلوم وأشرفها لما يترتب عليه من القدرة على المفاضلة بين الأساليب لمعرفة الجيد منها والرديء، وتنمية حاسة التذوق والنقد، وغير ذلك من الفوائد التي جعلت أبا هلال يرى أن (العلم به أصل في التمييز بين العالم والجاهل من الناس)، وإذا كان كل علم يشرف بشرف مقصده، ويسمو بسمو غاياته، فإن علم البلاغة يعد من أجل العلوم قدراً وأدقها سراً، حيث يعرف به دقائق العربية وأسرارها ويكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها كما ذكر الخطيب"[1].

وقد سبق لنا عرض رأيه القاضي بأن الصيحات المنادية بتوجيه الطلاب إلى آفاق واسعة في مجالات الأدب ونقده "لن تكون مغنية – بحال من الأحوال – عن دراسة البلاغة على النهج الفني المتوارث الذي يربي ملكة النقد والتذوق، ويُمَكِّن الطلاب من فقه أسرار الإعجاز البلاغي في كتاب الله الكريم"[2]، ولفضيلته رأي ووجهة نظر معتبرة في تجديد الدرس البلاغي يرى فيهما – فيما يرى – أن لامناص في تجديد الدرس البلاغي من بعث التراث البلاغي القديم ليكون مرجعاً يمد التراث الحديث بالمادة العلمية والأدبية، أو من معالجة وتجديد البلاغة بالبلاغة.
الأمر الذي يؤكد أنه لا يجوز بحال تحجيم دور الدرس البلاغي أو الابتعاد به عن رسالته المنوط بها أو إضلاله عن الهدف من دراسته تحت دعوى ضرورة "وصل البلاغة بالحياة الأدبية وجعلها دراسة ذات جدوى" .. كما لا يجوز أن تضيع وسط هذه الصيحات المتجهمة والمتجاهلة حقيقة التجديد وغير الناظرة بعين الاعتبار لمقتضيات الأحوال وتنوع المقامات والاعتبارات المناسبة – مهمة الدرس البلاغي بالأساس – أن تنقضَّ على علوم البلاغة فتجعلها أثراً بعد عين، ولا أن تمس مبادئها وأسسها وأصولها ولا أن تتوسع على حساب البلاغة بما لا علاقة لها به، فإن أثم ذلك عند الله عظيم .. كما لا يجوز أن يُكتفي في دراسة البلاغة بما ذكر من الاقتصار على معرفة الفرق بين كلام جيد وآخر رديء ولفظ حسن وآخر قبيح، ولا أحد يقول أو يظن أن هذا هو مراد صاحب الصناعتين الذي ساق كلٌّ من الخولي وصاحب المدخل كلامه وحمله كل على ما يراه صواباً في تجديد الخطاب البلاغي، مع حفاظ الثاني على الثوابت والأصول والأهداف التي لأجلها أنشأت الدراسات البلاغية وتخلِي الأول عن كل ذلك تماماً.
ورد ذلك باختصار: هو أن القول بأن البلاغة فسدت لما داخلت موضوع الإعجاز يدعو إلى العجب، لأننا لو تصورنا ذلك نكون قد تصورنا وهماً محضاً، ذلك أن مباحث البلاغة قد أنشأت وولدت من رحم الإعجاز، فكيف يتصور القول بأنها لما شغلت بالإعجاز فسدت؟ هذا كلام لا يلتئم أبداً وهو محض وهم، يعاد – للأسف – من جديد في مؤلفات كثيرة وبحوث علمية، وهو يستشري ويتسع مع الغفلة وخلو الوفاض من العلم بأوليات العلم، وتُربى عليه أجيال .. ثم إن قضية الإعجاز لها جانب عالجه علماء العقائد ويغلب عليه علم الكلام، ولا شأن للإعجاز البلاغي به، لأن الإعجاز البلاغي يخوض من ألفه إلى يائه في الشعر وبلاغة البيان، ولم يغفل علماؤنا التنبيه إلى ذلك ولذا كانوا يقولون إنهم يدرسون الإعجاز على طريقة أهل الأدب وليس على طريقة المتكلمين[3]، وتخلو كتبهم خلواً تاماً من مسائل علم الكلام[1] .. انتهى باختصار من كلام د. محمد أبي موسى.

([1]) المدخل د. فتحي فريد ص ٥٨ وينظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣، والمطول للسعد ص ٩.
([2]) المدخل د. فتحي فريد ص ١٦.
([3]) وبظني أن هذا أبلغ رد على مدرسة الأسلوبية الذي اتخذت من هذه تكأة للخروج على البلاغة القديمة بما لا يصح، إذ ليس من الصواب الجنوح إلى القول بأن ثمة انحرافاً حاد "بالبلاغة عن هدفها الجمالي إلى بحث قضية

وحسبي من فضيلته هذا حتى نضع الأمور في نصابها .. لكن الذي أود التنبيه إليه هنا أن هذا الكلام، هو الذي كان يدور في خلدي، وقد اطلعت عليه بعد انتهائي تقريباً من كتابة البحث .. الأمر الذي يعني أن الفطر السليمة والعقول الخالية من الأحقاد والمؤثرات الخارجية تكاد تكون مجمعة على رد ما جاء به أرباب الحداثة، بل ورد من يردده على أعقابهم، فليس من أوتي فطرة سليمة وعقلاً سديداً بحاجة إلى من يُقدِم له الدليل على خبل العقول التي تريد وأد بلاغتنا بعد أن ذهبت الغاية وذهبت بإذهابها العقول .. وبعد أن ظهر ولاؤهم لغير الفصحى مع ظهور نيتهم في الانقضاض على الدرس البلاغي ظلماً وعدواناً.

وبرأيي أن في هذا القدر الذي ذكرناه في هذا البحث كفاية للرد على ما جاء بشبهاتهم، وكذا في البديل الذي أرادوا الاستعاضة به عن بلاغتنا العتيقة، أعني ما أسموه بـ (الأسلوبية) .. ولا أجدني بحاجة لقول أو لكتابة المزيد وإن كان في الجعبة منهما الكثير .. والله من وراء القصد وهو الموفق والهادي إلى سبيل

******

الإعجاز بما لها من أبعد منطقية وكلامية وفلسفية"، أو "جعل الجمال البلاغي جمالاً مقعداً" على حد ما جاء في عبارة د. عبد المطلب مطلوب في كتابه (البلاغة والأسلوبية) ص ١٩١، وكذا كل ما جاء على شاكلتها.

(١) ينظر مقدمة خصائص التراكيب ط . السادسة ص: ل، م.

الخاتمة

وبعد هذا التطواف حول معالم وملامح التجديد في ميدان الدراسات البلاغية في الحاضر والماضي وبيان ما لكلٍّ وما عليه، وعقيب هذا التجوال الذي أبحر بنا حول ما يمكن أن يعد بحق تجديداً وما لا يمكن .. بوسعنا – وبشيء من التجرد– أن نصل إلى التأكيد على حقيقة "أن التجديد – على حد قول أ: الجندي في موسوعته ١٠/ ٣٩٠ – عمل، يشق إلا على من يأخذ نفسه بأشد ما يطالب به الناس من التجرد من الهوى ومن الإخلاص الحق، ولا غنى فيه بعد ذلك عن شيئين:
عن القدرة على تميز الحق من الباطل، وعن الاستمساك بالحق بعد أن يمتاز"، وأن ثمة خللاً قد لوحظ في تحقيق هذين الشيئين وما قبلهما أفسد جانباً كبيراً من الجهود المبذولة في تجديد البلاغة، وانعكس ذلك بدوره على مستوى تلامذة التعليم العام وطلاب أقسام اللغة العربية بكثير من الكليات داخل بلادنا بل وخارجها، ذلك أننا خضنا بهؤلاء جميعاً تجربة (الأسلوبية) دون أن نعلّمهم أولاً أن المعاصرة لا تعني أن نتخلى عن تراثنا ولا أن نتهجم على علمائنا القدامى فنتنكر بكل ذلك لماضينا .. وأنها لا تعني أن نطور علومنا بعلوم غيرنا ولا أن نجدد فكرنا بفكر غيرنا، فتذوب شخصيتنا وتغيب غايتنا.
إذ كان من نتيجة ذلك أن نسي أبناؤنا أن لهم غاية من تعلم العربية وعلومها أو هدفاً يستحق أن يبذل لأجله الوقت والجهد النفس والنفيس، وطفقوا يدرسون اللغة – التي تعد في المقام الأول أداة من أدوات تحصيل العلم الشرعي – بعيدة عن غايتها وهدفها، وبغير طرائقها وأصولها المنتزعة من لحمها ودمها، وذلك بعد أن جنينا عليهم وأوقعناهم في حماقات نحن صنعناها بأيدينا ثم ارتكبناها في حقهم وحق أنفسنا وحق أمانة العلم، جانب من تيك الحماقات تعلّق بحق أسلافنا حين اتهمناهم بضيق الأفق وأنهم "قصروا البحث البلاغي على الألفاظ من حيث أدائها للمعاني الجزئية بالجملة الواحدة أو الجمل المتصلة في معنى واحد"[مناهج تجديد البلاغة ص ٢٠١]، مع أن هذا منكر من القول وزور .. وآخر بحق موروثنا البلاغي حين فهمنا منه أن "المعنى – الوارد في تعريف علم البيان الذي عنوا به (إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة) –: هو تشبيه أو استعارة أو كناية لا غير، أما المعاني الأدبية والأغراض الفنية .. فلم ينظروا – الأقدمون – فيها" [السابق]، فخلطنا بين طرق الإيراد المعنيِّ بها (علم البيان) والتي تأتي عليها أساليب النصوص، وبين الخصوصيات التي تكتنفها هذه الأساليب وهو ما عُنَي به (علم المعاني)، كما خلطنا بين المعاني المرادة من البلاغة والمرادة من فنون الأدب وأغراضه الفنية، ففهمنا تراثنا البلاغي على غير مراده، وأوهمنا أنه بسبب ذلك شُغل بالصورة الإفرادية، أما التركيبية فقد كان ينبغي له أن يتوسع فيها، وعنينا بالتركيبية: تلك التي تمتد الآفاق الرحبة بها لتشمل "فنون الأدب نظماً ونثراً"، بل والفنون التشكيلية من نحت وعمارة وموسيقى وتصوير وسواها إذ يستعان بها "جميعاً في إظهار الجميل"، وبها تكتمل "الصورة التي نرى بها البلاغة مصنفة مع غيرها من علوم العربية" (فن القول ص ٢٣٥، ٨٨، ٨٢) .. فكان هذا المزيج من الكذب على سابقينا، والخطأ في فهم تراثهم البلاغي بتحميله ما لا يحتمل، وبصرف أصوله وأسسه عن الوجوه التي وضعت له، هو الدافع للهجوم على القدماء والمطالبة – على هذا النحو السافر المشبوه – بـ "تجديد البلاغة العربية تجديداً يمس الأصول والأسس فيغيرها وينفي فيها ويثبت"، بل ويَطَال حتى مسمى (البلاغة) وأقسامها بعد أن "صار التقسيم القديم للبلاغة إلى (المعاني) و(البيان) و(البديع) لا أساس له ولا غناء فيه" (مناهج تجديد البلاغة ص ٢٠٠، ٢٠١) .. وكان يغني عن ذلك كله معالجة الصورة البلاغية في بنية الأسلوب أو طريقة أدائه، من خلال سياقاتها ونظمها والنظرة الكلية للنص الأدبي، وهو الاتجاه الذي تبناه علماء البلاغة بأزهرنا المعمور، فهذا بضميمة ما تبنوه من إحياء البلاغة الأصيلة الصافية بأسلوب أدبي رائق، عن طريق (الرجوع بها إلى منابعها الأولى) التي

كانت عليها أيام عبد القاهر، أو بـ (تجديد البلاغة بالبلاغة)، يعدُّ – بحق – التجديد الذي يبني ولا يهدم وينفع ولا يضر ويقرب ولا يبعد ويجمع بين الأصالة والمعاصرة ولا يفرق.

أما أن يكون البديل – عن ربط الأصالة بالمعاصرة واحترام عقلية السابقين وتقدير جهودهم وبعث بلاغتهم من جديد والسعي لتحقيق الغايات الكبرى – متمثلاً فيما سبق على يد أهل الحداثة، فهو – بنظري ونظر أساتذتي ونظر كل منصف – عدوان على البلاغة والدرس البلاغي.

ولقد رأينا كيف تمخض هذا العدوان عن اتباع منهج التوفيق بين ما نحن عليه وما عليه الغرب، وكيف ترتب عليه مسخ موروثنا البلاغي وإغراقه بالفلسفة وبفنون القول المختلفة وغير ذلك مما لا يمت لبلاغتنا بأدنى صلة، وذلك بعد أن غاب عن أصحاب هذا المنهج التوفيقي، أن البلاغة العربية تتميز فيما تتميز به بأنها محصلة علوم متعددة، أتت لها بطريق العَرَض واشترط البلاغيون الإلمام بها لتحقيق أغراض بعينها يعود بعضها على المتكلم وذلك بتربية ملكة التذوق، ويعود بعضها الآخر على الكلام لارتفاع شأنه في الحسن والقبول بمطابقته لمقتضيات الأحوال أو للاعتبارات المناسبة المسماة لدى عبد القاهر بـ (النظم) ، وبعضها الثالث على ما به تسير حركة الكلام وفق حال المخاطب، إذ لكل مخاطب ما يناسبه من الأساليب، ولكل مقام مقال ولكل حال مقتضاه.

كما كان من نتائج هذا العدوان، أن ما عدُّوه تجديداً وجنوا به على أنفسهم وأبنائهم، لم يكن في الحقيقة تجديداً للبلاغة بقدر ما كان تدميراً لها واقتلاعاً بالدرس البلاغي من جذوره وإضاعة للغاية العظمى والهدف الأسمى منه، والذهاب به بعد ذاك إلى مكان سحيق .. وكان وراء كل هذا فداحة الخطب وفظاعة الجرم في حق أقحاح البلاغة وموروثنا البلاغي الذي وصلنا عنهم، وذلك من أشد أنواع الظلم والإجحاف .. فلا كانت الانتقادات على القديم والقدماء في محلها، ولا كانت الصورة عنهما صحيحة، ولا كانت الذرائع وراء تعالي صيحة التجديد على هذا النحو الذي جنحوا إليه كافية، ولا كانت البدائل عن قديم البلاغة صائبة، ولا كانت تغييرات مسمى البلاغة بـ (فن القول) أو بـ (علم الأسلوب) مجدية .. وما هكذا يا سعد تورد الإبل.

وما سبق يدعونا لأن نكرر ونردد ونؤكد على أن التجديد في ميدان العلوم البلاغية بالذات يشوبه الكثير من المخاطر والمحاذير التي تستوجب أن نتحسس لأجله مواطئ أقدامنا وأن نتنبه لما يريده منا عدونا .. وما ذلك إلا لارتباطها – أولاً – ارتباطاً أساسياً ببلاغة القرآن، ولاستعصاء هذه العلوم عن الانضواء تحت الحداثة أو أيٍّ من مسميات التغيير التي تبغي التوفيق ما بين الرؤى العربية والرؤى الغربية، ولما تتميز به – ثالثاً – من دقة وخصوصيات لا يمكن معها أن تنصاع لنوازع التجديد الغربية على نحو ما تأثرت الدراسات الأدبية والنقدية على سبيل المثال .. ومن لم يراع هذه الخصوصيات لا تجدي صيحاته ولا محاولاته ولم يصب بتجديداته كبد الحقيقة .. والله من وراء القصد، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

******

ثبت بأهم المراجع والمصادر

١- أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ت محمود محمد شاكر ط ١ - ١٩٩١ م المدني.
٢- الأسلوب لأحمد الشايب ط ٨ مكتبة النهضة المصرية.
٣- الإيضاح مع البغية للخطيب القزويني ت. عبد المتعال الصعيدى ط ٢٠٠٠ م الآداب.
٤- البلاغة تطور وتاريخ. د. شوقي ضيف ط ٥ – دار المعارف.
٥- البلاغة العربية بين التقليد والتجديد د. خفاجي ط ١ - ١٩٩٢م دار الجيل بيروت.
٦- البلاغة الواضحة .على الجارم . دار المعارف- لبنان.
٧- البلاغة والأسلوبية د. محمد عبد المطلب الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤
٨- البيان القرآني .د/ محمد رجب البيومي ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
٩- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها. مصطفى المراغي ط الحلبي.
١٠- التعددية وتداول السلطة. رسالة دكتوراه لصفوت أحمد بحقوق القاهرة.
١١- تلخيص المفتاح للخطيب القزويني بشرح سعد الدين التفتازاني ط الحلبي.
١٢- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والباقلاني.
١٣- الجانب النفسي من التفكير البلاغي عند عبد القاهر د..إبراهيم الخولي
١٤- الحداثة ردة فكرية تلاشت وذهب ريحها. مقال للدكتور شوقي ضيف بمجلة (الأدب الإسلامي) الصادرة عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية عدد ٢٨ – ١٤٢١.
١٥- الحركة الأسلوبية . عبد الرازق محمد فضل. بدون ذكر طبعة ولا تاريخ.
١٦- حقيقة الأصولية الإسلامية في فكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي .عصمت نصار. دار الهداية . ط ١- ٢٠٠٤.
١٧- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني. د.محمد محمد أبو موسى ط ٦ - ٢٠٠٤م وهبة.
١٨- دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ت محمود محمد شاكر ط ٣ - ١٩٩٢ م المدني.
١٩- دلالات التراكيب د. أبو موسى ط ٢ - ١٩٧٨ م وهبة.
٢٠- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا للشيخ محمود محمد شاكر ط ٢- ٢٠٠٦ الدولية للطباعة.
٢١- الصورة الأدبية بين النظرية والتطبيق .د/ حفني شرف.
٢٢- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. ليحيي العلوي ط دار الكتب العلمية - بيروت.
٢٣- علم المعاني في الموروث البلاغي د. حسن طبل ط ٢ - ٢٠٠٥ م الإيمان.
٢٤- فن القول .أمين الخولي. دار الكتب المصرية-١٩٩٦.
٢٥- قضية اللفظ والمعنى د. علي العماري ط ١/ ١٩٩٩م وهبة.
٢٦- المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع .د. عبد العظيم المطعني.
٢٧- المدخل إلى دراسة البلاغة .د. فتحي فريد ط ١٩٧٨ م النهضة.
٢٨- المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني م الأزهرية للتراث.
٢٩- مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي..ط ثانية ١٩٩٠- م مصطفى الحلبي.
٣٠- مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث د. إبراهيم الخولي ط ١ - ٢٠٠٧.
٣١- مقدمة التفسير البياني لقرآن الكريم .د.عائشة عبد الرحمن ط دار المعارف.
٣٢- مقدمة النثر د. طه حسين ط ١٩٣٩ بالقاهرة.
٣٣- مكان النحو من نظرية النظم د/ إبراهيم الخولي. ط. ١. ٢٠٠٨ دار البصائر.
٣٤- مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب أمين الخولي ط الهيئة العامة المصرية للكتاب.
٣٥- من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده .لمحمد خلف الله.
٣٦- المنجد في اللغة والأعلام . لويس المعلوف . دار المشرق . بيروت . ط٢٩/ ١٩٨٧.
٣٧- الموجه الفني . لعبد العليم إبراهيم والمدخل إلى دراسة البلاغة.
٣٨- موسوعة أ. أنور الجندي (محاولة لبناء منهج إسلامي متكامل)
٣٩- النقد الأدبي أصوله ومناهجه. سيد قطب.
٤٠- النقد والنقاد المعاصرون د/ محمد مندور. مكتبة نهضة مصر.

فهرس الموضوعات